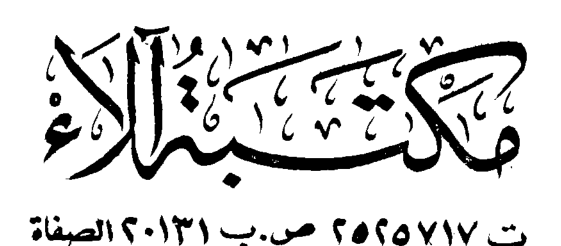
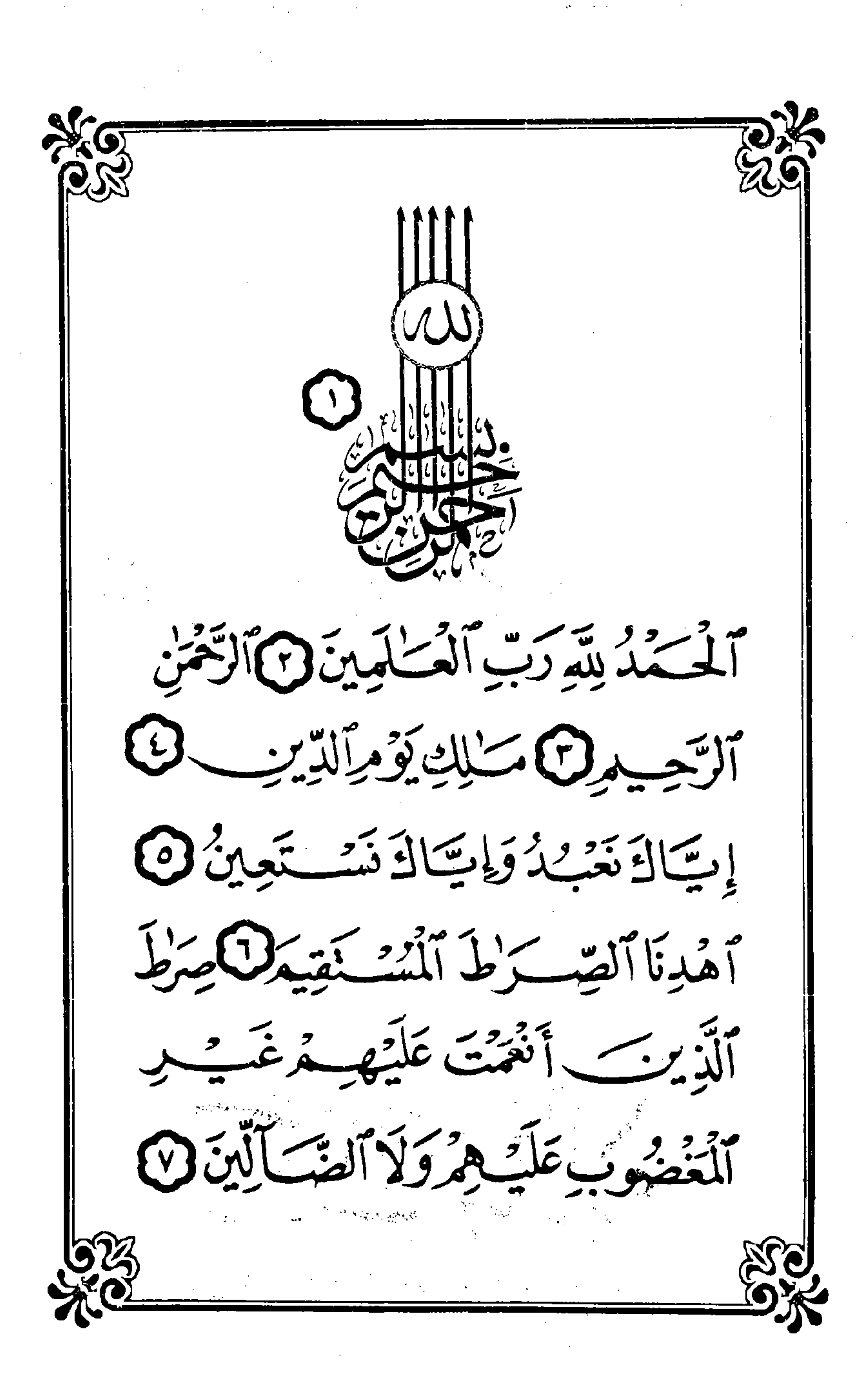
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
( ٤ )

# الطبيعة اليهودية

تأليف
الدكتور سعد المرصفي




ت ٢٥٢٥٧١٧ ص.ب ٢٠١٣١ الصفاة


الله
١
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العلمين ٢ الرحمن
الرحيم ٣ ملك يوم الدين ٤
إياك نعبد وإياك نستعين ٥
اهدنا الصرط المستقيم ٦ صرط
الذين أنعمت عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين ٧

الطبيعة اليهودية

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية





Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

# مقدمـــة

معرفة طبيعة العدو هي خط الدفاع الأول.. واليهود أنفسهم ـ كما يشهد تاريخهم وتنطق آثارهم ـ يدركون أهمية هذه الحقيقة، ويعملون جاهدين على حشد كل جديد من المعلومات التى تفيدهم فى حروبهم!

والمسلمون يعيشون واقعا أليما، حيث ينقصهم هذا الجانب الضروري، كما ينقصهم الإعداد للمواجهة التى لابد منها سواء بسواء! مع أن اليهود قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم فى نحو خمسين سورة من مائة وأربع عشرة سورة، وفى السنة النبوية كثير من الأحاديث التى تفوق الحصر والعد، وفى الواقع التاريخي الأليم الذى سجل كثيرا من المعارك الضارية!

وكيف يعيش المسلمون هكذا، وعندهم هذا الحشد الهائل من المعرفة التى تمثل خط الدفاع الأول، وتقود إلى الإعداد للمواجهة الفاصلة عن بينة بما تفرضه ضرورة المعركة ؟!

وحسبنا أن ندرك أن اليهود يحسبون كل حساب لهذا الدين وأهله.. ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع هذا الدين؛ لأنهم يعرفون ما فيه من حق، كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أيضا ما هم فيه من باطل، وأن الجاهلية التى صاروا إليها، وصارت إليها أوضاعهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقى عليها، وأنها معارك مستمرة لا تهدأ، حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلى الدين القيم ويكون كله لله..

وحسبنا ـ كذلك ـ أن ندرك أنهم عبر التاريخ يدرسون هذا الدين جيلا بعد جيل دراسة دقيقة عميقة، وينقبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس، ومساربه فيها، ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة فى هذا الدين؟!

ولقد واجهوا الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة هذا الدين بالمدينة، وكادوا لهذه الأمة منذ اليوم الذى أصبحت فيه أمة، وما تزال هذه المواجهة لم تخب أوارها لحظة!

إنهم هذه الطبيعة الشريرة، والجبلة النكدة، التى ينغل الحقد فى صدورها على الرسالة والرسول، والتى تقود الحرب ضد الإسلام والمسلمين فى جميع الاتجاهات: تصعيدا لحرب

نفسية، ومطاردات جدلية، وفتنا اجتماعية، واغتيالات سياسية، وتحركات عسكرية، وتأليبا للقوى المعادية للإسلام وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة!

ولن يخلص الأرض المغتصبة والعالم كله من هذا الشر المستطير إلا الإسلام وأهله يوم يفىء أهله إليه!

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معرفة الطبيعة اليهودية، رجاء أن تكون هذه المعرفة خط الدفاع الأول، لنبدأ المواجهة الفاصلة التى تقود إلى النصر النهائى الذى تنطق به الأدلة من الكتاب والسنة.

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتي:

الفصل الأول: طبيعة وعداء.

الفصل الثانى: معركة عقيدة.

الفصل الثالث: غزوة بنى قينقاع.

والله أسأل: التوفيق والسداد، والعون والرشاد، إنه سميع مجيب،

**سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)**

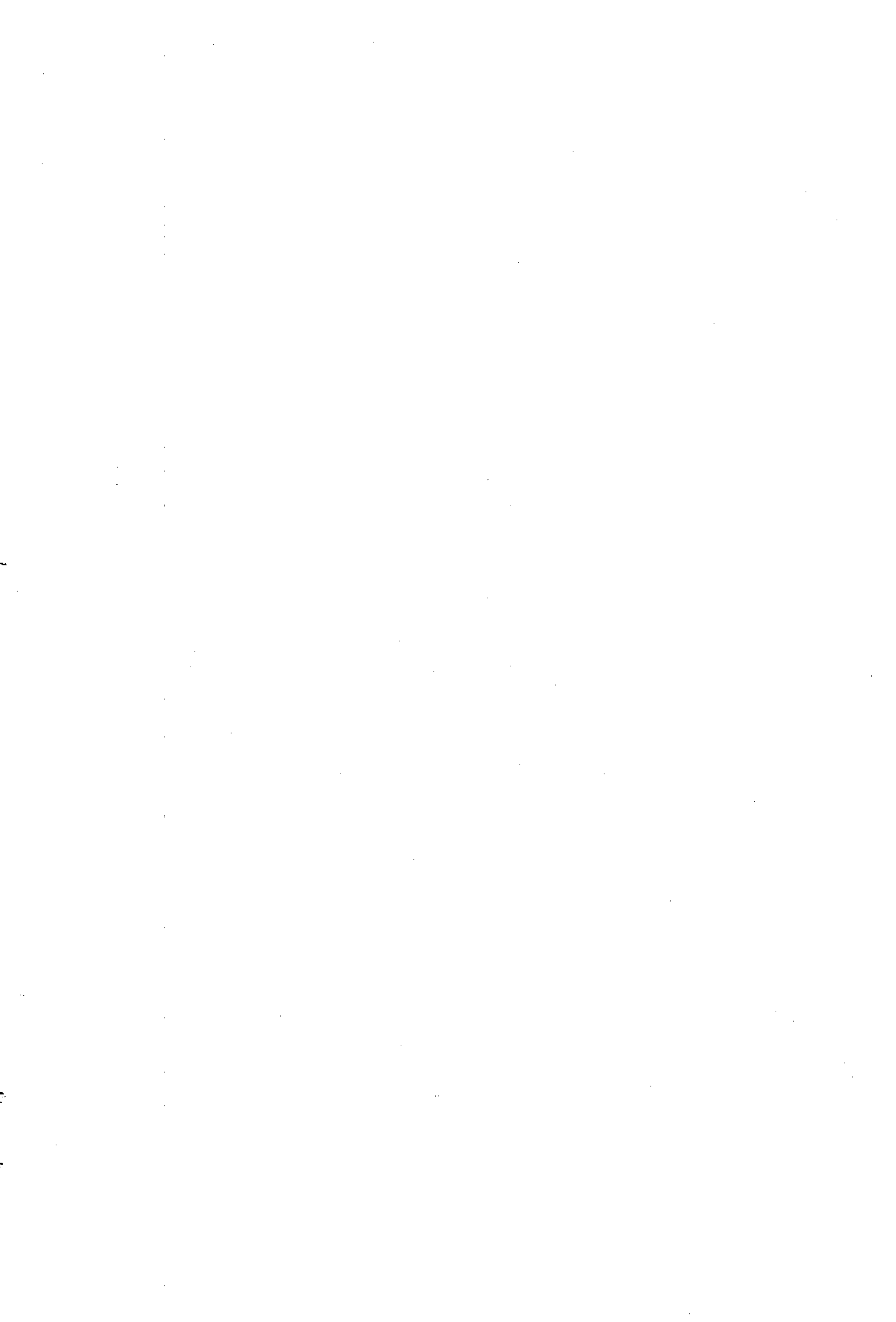
الكويت فى ٢٨ رمضان ١٤١٢ هـ

١ أبريل ١٩٩٢ م.

# الفصل الأول

# طبيعة وعداء

تمهيد ـ التعنت فى الأسئلة ـ قصة البقرة ـ بنو إسرائيل فى سورة البقرة ـ سالفة اليهود ـ اليهود المعاصرون للبعثة ـ قدامى المسلمين من لدن إبراهيم ـ حاضر المسلمين وقت البعثة ـ «أشد الناس عداوة».



## تمهيد:

لقد شغل اليهود في القرآن الكريم مكانا كبيرا، حيث ورد ذكرهم في نحو خمسين سورة من مائة وأربع عشرة سورة..

وقد وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه مع اليهود الذين كانوا يتفاخرون على الأوس والخزرج، والعرب الذين كانوا عبدة الأوثان، وكان اليهود يعرفون صحة التنزيل معرفة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، ولا يتطرق إليها أي شك، كما يعرف الأب ابنه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (١)

ونلمح باستصحاب الواقع التاريخي، وموقف اليهود من هذا الدين (٢)، أنهم يعرفون أن هذا الكتاب حق، ويعرفون من ثم ما فيه من سلطان وقوة، ومن خير وصلاح، ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها، وبالأخلاق التي تنبثق منها، وبالنظام الذي يقوم عليها.

ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله، ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل هذا الدين!

إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقى عليها. وأنها ـ من ثم ـ معارك مستمرة، لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله لله..

إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة في هذا الدين .. ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة، وينقبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس، ومساربه فيها، ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟!

كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهل؟!

---

(١) الأنعام: ٢٠.
(٢) في ظلال القرآن: ٢: ١٠٦١ بتصرف.

كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه؟!

كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقى به؟!

كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية، وتسترد سلطان الحق فى الأرض، وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله.. إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدل فارغ ؟!

كيف يفرغون مفهوماته فى أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه، مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة؟!

كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى، ومفهومات أخرى، واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة؟

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ـ كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين! ـ ولا لينصفوا هذا الدين ـ كما يتصور بعض المخدوعين حيمنا يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب فى هذا الدين! ـ كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل هذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه فى النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التى يريدون ملء فراغ الناس بها! وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم!

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة.. هي هذه الحقيقة التي يقرها القرآن الكريم فى هذه الآية:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾

ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلي بصورة خاصة.. إن البحوث التى تكتب عن الإسلام فى هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب فى وقت قصير يعجز الخيال الشاخص عن تصوره، بلغة من اللغات الأجنبية.. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل

مقاومته، وطرق إفساد توجيهه!

ومعظمهم ـ بطبيعة الحال ـ لا يفصح عن نيته هذه، فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة، وأن الحركات التى قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين ـ الممثل فى الاستعمار ـ إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية، وأن استمرار الهجوم على الإسلام ـ ولو في الصورة الفكرية ـ سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة!

لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث.. يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى ينوم المشاعر المتوفزة، ويخدر الحماسة المتحفزة، وينال ثقة القارئ واطمئنانه.. ثم يضع السم فى الكأس ويقدمها مترعة.. هذا الدين عظيم..

ولكنه ينبغى أن يتطور بمفهوماته، ويتطور كذلك بتنظيماته، ليجارى الحضارة الإنسانية الحديثة!

وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت فى أوضاع المجتمع، وفى أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق!

وينبغى ـ فى النهاية ـ أن يتمثل فى صورة عقيدة في القلوب، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة الإنسانية الحديثة!

ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل دينا عظيما..!

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين ـ وهي ظاهريا تبدو فى صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر ـ يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب، لينبههم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته، ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف، ليسددوا ضرباتهم على الهدف، وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه، جديدة دائما، كلما عاشوا فى ظلاله، وهم يخوضون معركة العقيدة، ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ، ويطالعون بوعي أحداث الحاضر، ويرون بنور اللّه الذي يكشف الحق، وينير الطريق...

## التعنت فى الأسئلة:

وحين وجد اليهود أن المجادلات قد فشلوا فيها ـ كما سبق ـ ومن ثم خرجوا منها

بالخيبة والخسران .. لجأوا إلى مسلك آخر (١) ، لتشكيك المسلمين في عقيدتهم. ألا وهو توجيه الأسئلة المتعنتة إلى الرسول ﷺ، بقصد إحراجه، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم..

وقد سجل القرآن الكريم هذا المسلك الخبيث من اليهود، ووبخهم عليه، فقال تعالى:

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ (٢)

روى ابن جرير (٣) عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله:

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

إلى قوله:

﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ (٤)

وأخرج عن ابن جريج، قال: وذلك أن اليهود والنصاري أتوا النبي ﷺ، فقالوا: لن نتابعك على ما تدعونا إليه، حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان، أنك رسول الله، وإلى فلان بكتاب، أنك رسول الله، قال الله جل ثناؤه:

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن أهل التوراة سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتابا من السماء آية، معجزة جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها، شاهدة لرسول الله ﷺ بالصدق، آمرة لهم باتباعه، وجائز أن يكون الذى

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ١ : ٢٥٧ بتصرف.
(٢) النساء: ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٣) تفسير الطبري: ٦ : ٧ ـ ٨ بتصرف.
(٤) النساء: ١٥٦ .

سألوه من ذلك كتابا مكتوبا ينزل عليهم من السماء إلى جماعتهم، وجائز أن يكون ذلك كتبا إلى أشخاص بعينهم، بل الذي هو أولى بظاهر التلاوة أن تكون مسألتهم إياه ذلك كانت مسئلة، لينزل الكتاب الواحد إلى جماعتهم، لذكر اللّٰه تعالى فى خبره عنهم الكتابِ بلفظ الواحد، يقول:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

ولم يقل: كتبا.

لقد وقف اليهود فى الجزيرة من الرسالة والرسول ﷺ ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف (١)، وكادوا له ذلك الكيد المبيت المستمر العنيد، الذي وصفه القرآن تفصيلا، واستعرضنا ألوانا منه فيما سبق.. وهذا الذى تقصه الآيات هنا لون آخر.

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى خاتم النبيين ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء.. كتاب مخطوط ينزل عليهم من السماء.. يلمسونه بأيديهم..

ويتولى الحق الإجابة عن النبي ﷺ .. ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة ـ فى مواجهة اليهود ـ صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى عليه السلام.. الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد!

إن هذه الجبلة ليست جديدة عليهم، وليست طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي جبلتهم من قديم!

إنهم هم من عهد موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم!

إنهم هم غلظ حس، فلا يدركون إلا المحسوسات!

وهم هم تعنتا وإعناتا، فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط!

وهم هم كفرا وغدرا، فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم، لا مع الناس وحدهم، ولكن مع ربهم كذلك!

وهم هم قحة وافتراء، فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول، ولا هم يتورعون كذلك عن الجهر بالمنكر!

وهم هم طمعا فى عرض الحياة الدنيا، وأكلا لأموال الناس بالباطل، وإعراضا عن أمر

---

(١) في ظلال القرآن: ٢: ٧٩٩ بتصرف.

الله وعما عنده من ثواب!

إنها حملة تفضحهم وتكشفهم، وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودى للرسالة والرسول ﷺ في ذلك الأوان!

وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

فلا عليك من هذا التعنت، ولا غرابة فيه ولا عجب منه:

﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

ولم تبلغ الآيات البينات التى أظهرها الله لهم على يد نبيهم موسى أن تلمس حسهم، وتوقظ وجدانهم، وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام، فإذا هم يطلبون رؤية الله سبحانه عيانا! وهو مطلب طابعه التبجح الذى لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان، أو فيه استعداد للإيمان:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (١)

قال ابن جرير(٢): وتأويل ذلك: واذكروا أيضا إذ قلتم ياموسى لن نصدقك، ولن نقر بما جئتنا به حتى نرى الله جهرة عيانا، برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا.. وأخرج عن ابن عباس قال: علانية.. وعن ابن زيد: حتى يطلع إلينا..

إن اليهود هم اليهود! هم كثافة حس، ومادية فكر، واحتجاب عن مسارب الغيب! إنهم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذى طلب هذا ـ كما روى ابن جرير ـ هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه:

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٥٥. (٢) تفسير الطبرى: ١: ٢٨٩ بتصرف. (٣) الأعراف: ١٥٥.

روى ابن جرير(١) عن محمد بن إسحاق قال: لما رجع موسى إلى قومه، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامرى ما قال، وحرّق العجل وذراه فى اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله عز وجل،فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهّروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم، فقال له السبعون، فيما ذكر لى، حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله: ياموسى اطلب لنا إلى ربك، لنسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب، ودنا للقوم، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه،افعل ولا تفعل.فلما فرغ من أمره، وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى:

﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فأخذتهم الرجفة، وهى الصاعقة، فماتوا جميعا، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول:

﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾

قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أى أن هذا لهم هلاك، اخترت منهم سبعين رجلا، الخير فالخير أرجع إليهم، وليس معى منهم رجل واحد، فما الذى يصدقونى به، أو يأمنونى عليه بعد هذا؟( إنا هدنا إليك) فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل، ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم، فطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادتهم العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم.

وروى أيضا عن السدى: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل،ووعدهم موعدا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان:

﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾

---

(١) المرجع السابق: ٢٩١ باصرف.

وساق البقية.. وقال ابن كثير[1]: وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

والمراد: السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه..

القول الثانى فى الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذى أمركم به، ونهيكم الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا، فيقول: هذا كتابى فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى، وقرأ قول الله:

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

قال ابن جرير بعد أن ذكر الأقوال الكثيرة الواردة فى سبب قولهم ذلك لموسى[2]: الصواب من القول فيه أن يقال: إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له:

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

كما أخبر عنهم أنهم قالوه، وإنما أخبر الله عز وجل بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات توبيخا لهم فى كفرهم بمحمد ﷺ، وقد قامت حجته على من احتج به عليه، ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعى لهم إلى قيل ذلك، وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التى ذكرناها، وجائز أن يكون بعضها حقا كما قال.

قلت: وسواء كان هذا أو ذاك،فإن اليهود هم اليهود، يرفضون الإيمان إلا أن يروا الله عيانا! والقرآن الكريم يواجههم هنا بهذا الذى كان منهم، لينكشف تعنتهم القديم الذى يشابهه تعنتهم الجديد مع خاتم النبيين، وطلبهم الخوارق منه بهذه الصورة! حقا، إنها طبيعة اليهود، تلك التى تشمل الجميع، ولا يكادون يتفاوتون فيها إلا بمقدار. وأعجب شيء أن يقولها آباؤهم وهم فى مقام التوبة والاستغفار!

والآيات الكثيرة[3]، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة

---

(1) تفسير ابن كثير : 1: 94 بتصرف.

(2) تفسير الطبرى : 1: 293.

(3) فى ظلال القرآن: 1 : 72 بتصرف .

الجاسية القاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت واقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي عاشوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا!

ولا نعرف إفسادا أشد للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد..استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردا حين يرفع عنها السوط، وتبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. ، وهكذا كان اليهود! وهكذا هم في كل حين:

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾

اليهود هم اليهود! لا يفلح معهم إلا القهر والخوف:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام.. وهنا جاءهم القهر المادي الذي يناسب طبيعتهم الغليظة..

قال ابن كثير(١): وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلا، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى ما فوق رءوسهم، خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢)

إن اليهود نظروا فرأوا الجبل فوق رؤوسهم(٣)، يهددهم بالوقوع عليهم، إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد، وما كتب عليهم.. عندئذ فقط استسلموا، وأخذوا العهد، وأعطوا الميثاق.. ميثاقا غليظا.. مؤكدا وثيقا.. يذكره بهذه الصفة ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذي في صدورهم، ثم يعطي إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة، على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وبالتخييل الحسي والتجسيم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١: ٥٧٣ بتصرف. (٢) الأعراف: ١٧١.
(٣) في ظلال القرآن: ٢: ٨٠٠ بتصرف.

ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، وغياب القهر لهم، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق، وتبجحوا فقالوا: إن قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول؛ لأنها غلف دون كل قول! وفعلوا كل الأفاعيل التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين، في مواجهة اليهود، في سياق هذه الآيات:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١)

وهنا نبصر أن كفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلا من أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه، وهم ـ كما أسلفنا ـ قلة قليلة.

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب، يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم، لتكون في انتظارهم في الآخرة:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾

وقولهم

ويكرر صفة الكفر هنا كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء

---

(١) النساء: ١٥٥ـ١٥٩.

بغير حق:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (٢)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (١)

وما يقتل نبى بحق أبدا، فهى حال التقرير الواقع!

وذكرها فى كثير من الآيات التى عرضناها لها من قبل.. وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتانا عظيما ـ كما سبق ـ حيث قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذى لا يقوله إلا اليهود! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله!

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يأتى الرد عليها، وتقرير الحق فيها:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

ومن قبيل الأسئلة المتعنتة ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (٤)

بينا أنا مع النبى ﷺ فى حرث ـ وهو متكئ على عسيب ـ إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الرُّوح، فقال ما رَابكم إليه ـ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشىء تكرهونه ـ فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئا، فعلمت أنه يُوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٦١. (٢) آل عمران: ٢١. (٣) آل عمران: ١١٢.

(٤) البخارى: ٦٥ ـ التفسير (٤٧٢١) ومسلم: ٥٠ ـ صفات المنافقين ٣٢ (٢٧٩٤).

(٥) الإسراء: ٨٥.

ويروى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال:

**كنت قائما عند رسول الله ﷺ . فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمدُ! فدفعتُه دفعة كاد يُصْرَعُ منها. فقال: لِم تدفعنى؟**

**فقلت ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودى: إنما ندعوه باسمه الذى سمّاه به أهلُه،فقال رسول الله ﷺ :**

**« إن اسمى محمدٌ الذى سمّانى بـه أهلى»**

**فقال اليهودى: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ:**

**«أينفعُك شيء إن حدَّثتك؟»**

**قال: أسمع بأذُنَىَّ. فَنكتَ رسولُ الله ﷺ بعود معه.**

**فقال:**

**« سلْ »**

**فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ:**

**«هم فى الظلمة دون الجِسـر»**

**قال: فمن أول الناس إِجازة؟ قال:**

**« فقـراءُ المهـاجرين»**

**قال اليهودى: فما تُحْفَتُهُمْ حين يدخلون الجنة؟ قال:**

**« زيـادة كبد النُّون »**

**قال: فما غذاؤهم على إِثْرها؟ قال:**

**«يُنحر لهم ثورُ الجنة الذى كان يأكل من أطرافها»**

قال: فما شرابُهم عليــه؟ قال:

« من عين فيهــا تسمَّى سلسبيلا»

قال: صدقْتَ. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض. إلا نبيٌّ أو رجل أو رجلان. قال:

«ينفعك إن حدثتك؟»

قال: أسمع بأذنيّ. قال جئت أسألك عن الولد؟ قال:

«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذْكَرَا بإذن الله. وإذا عَلا مَنِيُّ المرأة منيَّ الرجل أنثا بإذن الله» .

قال اليهودي: لقد صدقتَ. وإنك لنبيٌّ. ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ:

« لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه. ومالي علمٌ بشيءٍ منه. حتى أتانِيَ الله به»(١).

**قـصـة البـقـرة:**

إنه التنطع في الدين، والتهرب من الانصياع لكلمة الحق، إما للتحلل من الامتثال، وإما لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة..

وقصة أمرهم بذبح بقرة على لسان نبيهم موسى عليه السلام خير دليل على ذلك، قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ

(١)مسلم: ٣ ـ الحيض ٣٤(٣١٥).

﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

جاء فى المنار(٢): هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بنى إسرائيل فى قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها.

ومن وجوه الاعتبار أن التنطع فى الدين والإحفاء فى السؤال، مما يقتضى التشديد فى الأحكام، فمن شدَّ شُدِّد عليه، ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١)

يروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال(٤):

**« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » .**

قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم حنين. فقال رجل: من أبى؟قال:

**«أبوك فلان »**

---

(١) البقرة:٦٧ ـ ٧٤.

(٢) تفسير المنار: ١:٣٤٥ بتصرف.

(٣) المائدة: ١٠١ ـ١٠٢.

(٤) البخارى: ٦٥ ـ التفسير (٤٦٢١).

فنزلت هذه الآيـة:

﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

ويروى مسلم عنه قال: بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيء. فخطب فقال [١] :

**« عُرِضت عليّ الجنة والنار. فلم أر كاليوم فى الخير والشر. ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» .**

قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدُّ منه. قال: غطُّوا رؤوسهم ولهم حنين. قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربا. وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا . قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبِى؟ قال:

**« أبوك فلان » .**

فنـزلـت:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

وفى رواية للشيخين عنه أن النبى ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أمورا عظاما، ثم قال:

**« من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا» .**

**قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسولُ الله ﷺ أن يقول:**

**« سـلونـى »**

**فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مَدْخلى يا رسول الله؟ قال:**

---

(١) مسلم: ٤٣ ــ الفضائل ١٣٤ ( ٢٣٥٩ ) وقوله فى رواية البخارى:« حنين » ومسلم « خنين» قال ابن حجر: حنين الحاء المهملة للأكثر، وللكشميهنى بالخاء المعجمة، والأول: الصوت الذى يرتفع بالبكاء من الصدر، والثانى من الأنف، وقال الخطابى: الحنين بكاء دون الانتحاب، وقد يجعلون الحنين والخنين واحدا، إلا أن الحنين من الصدر، والخنين من الأنف، بالمعجمة: فتح البارى: ٨: ٢٨١.

النار .

**فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبى يارسول الله؟ قال:**

**« أبوك حذافة»**

**قال: ثم أكثر أن يقول:**

**« سلونى . سـلونى»**

**فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا. قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك. ثم قال رسول الله ﷺ:**

**« أوْلى. والذى نفسى بيده! لقد عُرضت علىّ الجنة والنار آنفا فى عُرْض هذا الحائط، وأنا أصلى، فلم أر كاليوم فى الخير والشر»** [١].

قال الشيخ محمد عبده[٢]: جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، فهو لم يلزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع، حتى فى القصة الواحدة.

وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا، ويهز النفس للاعتبار هزا. وقد راعى فى قصص بنى إسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله تعالى إياها، وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها، وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون فى إثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم فى إثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم، وينقلبون إلى كفرهم!

كان فى الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالرحمة، كالتفضيل على العالمين، وأخذ الميثاق، والإنجاء من آل فرعون، وما كان فى أثر ذلك ـ كما أوضحنا من

---

(١) البخارى: ٩٦ ـ الاعتصام (٧٢٩٤) ومسلم: ٤٣ ـ الفضائل ١٣٦ (ت ٢٣٥٨) قال النووى: أما لفظة أوْلى فهى تهديد ووعيد. وقيل: كلمة تلهف، فعلى هذا يستعملها من نجا من أمر عظيم، والصحيح المشهور أنها للتهديد، ومعناها قرب منكم ما تكرهونه. صحيح مسلم بشرح النووى: ١٥:١١٣.

(٢) تفسير المنار : ١: ٣٤٦ بتصرف.

من قبل وفصلنا ـ وفى هذه القصة اختلف النسق، فذكر المخالفة بعد، فى قوله:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾

ثم المنة فى الخلاص منها فى قوله:

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾

وقدم على ذلك ذكر وثيقة الخلاص، وهى ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها، حيث لم يسبق فى الكلام عهد بسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا البقرة، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذى وقع فيه يثير الشوق فى الأنفس إلى معرفة السبب، فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه، إذ الحكمة فى أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفية، وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها. لا سيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازلة للقلوب.

إن قصة البقرة هنا مفصلة فى صورة حكاية(١)، على غير ما سبق ذكره فى الآيات، ذلك أنها لم ترد من قبل فى السور المكية، كما أنها لم ترد فى موضع آخر، وهى ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة، وتمحل المعاذير، التى يتسم بها اليهود!

وفى هذه القصة القصيرة ـ كما يعرضها السياق القرآنى ـ مجال للنظر فى جوانب شتى..

جانب دلالاتها على طبيعة اليهود، وجبلتهم الموروثة!

وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة!

ثم جانب الأداء المعجز فى عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقا مع السياق..

إن السمات الرئيسة لطبيعة اليهود تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه:

انقطاع الصلة بين قلوبهم وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير والسخرية المنبعثة من صفات الجنان وسلاطة اللسان!

---

(١) فى ظلال القرآن : ١:٧٧ وما بعدها بتصرف.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ ﴾

وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم، وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أمر الله، الذى يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟

لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلا عن أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس:

﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾

وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله، وأن يردهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب فى حق الخالق جل علاه، وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بحق الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه:

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين:

وقد نبهت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع (١).

وكان فى هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمر نبيهم.. ولكنهم هم اليهود!

نعم لقد كان فى وسعهم - وهم فى سعة من الأمر ـ أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، مفذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ ﴾

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ٢: ١٧٠ نقلا عن: مجلة لواء الإسلام: العدد السابع: السنة الثانية: ٨.

والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم!

فهم أولا: يقولون: « ادع لنا ربك» فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم، إنما تعني موسى وربه!

وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: «ما هي؟» والسؤال عن الماهية في هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصفة ـ إنكار واستهزاء.. «ما هي؟» إنها بقرة. وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى!

قال الشيخ محمد عبده[1]: إن السؤال « بما هي» ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء المنطق من جعله سؤالا عن حقيقة الماهية، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة، والعرب يسألون « بما» عن الصفات التي تميز الشيء في الجملة، كالذي ذكره في الجواب:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾

وهنا يردهم موسى إلى الجادة[2]، بأن يسلك في الإجابة طريقا غير طريق السؤال. إنه لا يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال، كي لا يدخل معهم في جدل شكلي.. إنما يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين. يجيبهم عن صفة البقرة، بأنها لا هي عجوز ولا هي شابة، وإنما هي وسط بين هذا وذاك.

ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة:

﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية، وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي. أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن، فيخلصوا بها ذمتهم، وينفذوا بذبحها أمر ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق.. ولكن اليهود هم اليهود!

لقد راحوا يسألون:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾

---

(١) تفسير المنارة: ١: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) في ظلال القرآن: ١: ٧٨ بتصرف.

هكذا مرة أخرى: «ادع لنا ربك»!

قال ابن جرير[1] وهذا أيضا تعنت آخر منهم بعد الأول، وتكلف طلب ما قد كانوا كفوه فى المرة الثانية والمسألة الآخرة، وذلك أنهم لم يكونوا حصروا فى المرة الثانية، إذ قيل لهم بعد مسألتهم عن حلية البقرة التى كانوا أمروا بذبحها، فأبوا إلا تكلف ما قد كفوه من المسألة عن صفتها، فحصروا على نوع دون سائر الأنواع، عقوبة من الله لهم على مسألتهم التى سألوها نبيهم ﷺ تعنتا منهم له، ثم لم يحصرهم على لون منها دون لون، فأبوا إلا تكلف ما كانوا عن تكلفه أغنياء، فقالوا تعنتا منهم لنبيهم ﷺ:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾

فقيل لهم عقوبة لهم:

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾

فحصروا على لون منها دون لون.

ولم يكن بد ـ وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ـ أن يأتيهم الجواب بالتفصيل.. وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر فى سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا، لا عن بقرة.. مجرد بقرة.. بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهى بعد هذا صفراء فاقع لونها، وهى بعد هذا وذاك ليست هزيلة ولا شوهاء:

﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾

وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع فى تلك البقرة المطلوبة، فهذا هو الشائع فى طباع الناس: أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا.

ولقد كان فى هذا التلكؤ كفاية ولكنهم يمضون فى طريقهم، يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم، فيشدد الله عليهم!

لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾

---

(١) تفسير الطبرى: ١: ٣٤٤ بتصرف.

ويعتذرون عن السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل:

﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة، فهم يقولون:

﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدا، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا فى سعة منها وفى غنى عنها:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر صفراء فاقع لونها فارهة فحسب. بل لم يعد أن تكون مع هذا بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة.

هنا فقط .. وبعد أن تعقد الأمر وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار:

﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾

الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقا. أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة!

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

عند ئذ - وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف - كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وهنا نصل إلى الجانب الثانى من جوانب القصة.. جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة.. وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة..

لقد كشف الحق لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة.. لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه. ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح.. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين.

وهاتان قصتان ـ كما قال صاحب الكشاف [1] ـ كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة.

وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: «اضربوه ببعضها» حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها،وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

ونلاحظ أن القرآن الكريم أسند القتل إلى الأمة وإن كان القاتل واحدا ـ كما جاء في المنار [2] ـ باعتبار أن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد. والتدارؤ تفاعل من الدرء، وهو الدفع، فمعناه التدافع، وهو يدل على وجود الخصام والاتهام، وأن كلا يدرأ عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم غيره، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة، ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة:

﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾

من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل؛ أنه لا يخفى عليه مكركم.

وأما قوله:

---

(١) تفسير الكشاف: ١ ـ ٧٦ دار المعرفة. (٢) تفسير المنار: ١ : ٣٥٠ بتصرف.

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

فهو بيان لإخراج ما يكتمون.

ولكن فيم كانت هذه الوسيلة [1]، والله قادر على أن يحيي الموتي بلا وسيلة؟

ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل؟

إن البقر يذبح.. وما في البعض الذي ضرب به القتيل حياة ولا قدرة على الإحياء..

والأمر لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله، التى لا يعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقها فى العمل:

﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع، وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

إن المسافة بين حقيقة الموت وحقيقة الحياة مسافة شاسعة واسعة، هائلة تدير الرؤوس. ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟ هذا ما لا أحد يدريه.. وما لا يمكن لأحد إدراكه..

إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه فى عالم الفانين! وإن يكن فى طوق العقل البشرى إدراك دلالته والاتعاظ بها:

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وتعقيبا على هذا المشهد الأخير من القصة الذي كان من شأنه أن يستجيش فى قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى، وتعقيبا كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعبر والعظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

جاء فى المنار: [2] وصفهم الله تعالى بأنه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات ماأزال

(١) فى ظلال القرآن: ١:٧٩ بتصرف.

(٢) تفسير المنار: ١: ٣٥٢ وما بعدها بتصرف.

أثرها من قلوبهم، وذهب بعبرتها من عقولهم، فقال:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

فالعطف بثم يفيد أن من الأولين منهم من قد خشعت قلوبهم ـ كما أسلفنا ـ لما رأوا في زمن موسى عليه السلام ما رأوا، ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتها ما وصفه عز وجل. والقسوة: الصلابة، وهي من صفات الأجسام. ووصف القلوب بالقسوة مجاز تشبيه، مما يسمونه الاستعارة بالكناية، ويصح فى «أو» الترديد والتشكيك، وهو بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى المتكلم، باعتبار ما يعهد فى التخاطب العربي، كأن عربيا يحدث آخر يقول له: إن هذه القلوب فى قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها. ويصح فيها التقسيم: أى أن القسوة عمت قلوبكم، فأقلها قسوة يشبه الحجر الصلد، ومنها ما هو أشد منه قسوة، وأظهر منهما أن تكون للإضراب، على طريقة المبالغة، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة، إذ لا شعور فيها يأتي بخير، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة، والحجارة ليست كذلك؛ لأن منها ما يفيض بالخيرات، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الإلهية فى الجمادات.

ووصف الحجارة بتلك الصفات بعد أن شبه القلوب بها فى الصلابة المطلقة، وفرق بين القلوب وبينها بالإضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة، وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة فى الحجارة وشدتها فى القلوب مكان الكلام يشبه أن يكون عذرا عن الحجارة دون القلوب..

وفى الكلام من المبالغة أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال، بمايرد عليها من المواعظ والآيات التي هي من خواص الروح الإنساني، حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركة الجماد كالحجارة، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضا، وذلك ما أفاده قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قال ابن القيم[1]: وفى هذه القصة أنواع من العبر:

ـ منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ـ ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢ : ٣١٤ بتصرف.

ـ ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ـ ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ـ ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارا وإنذارا للضال.

ـ ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال... ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدد عليهم.

روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لو أن القوم نظروا أدنى بقرة ـ يعنى بنى إسرائيل ـ لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، فاشتروها بملء جلدها دنانير [1].

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذى لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر . فإن القوم لما قال لهم نبيهم: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» قابلوا هذا الأمر بقولهم: «أتتخذنا هزوا؟» فلما لم يعلموا وجه الحكمة فى ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: «أتتخذنا هزوا؟» وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم:«أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» وتيقنوا أن اللَّه سبحانه أمره بذلك، أخذوا فى التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا فى الامتثال. ولم يكادوا يفعلون!

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: «**الآن جئت بالحق**» فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام فى تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: «إن اللَّه يأمركم أن تذبحوا بقرة» فإنه لا إجمال فى الأمر، ولا في الفعل، ولا فى

---

(١) تفسير الطبرى : ١: ٣٤٨.

المذبوح. فقد جاء رسول اللّه بالحق من أول مرة.

قال ابن جرير[1]: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسي «الآن جئت بالحق» ويزعم أنهم نفوا أن يكون موسى أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك من فعلهم وقيلهم كفر، وليس الذي قال من ذلك عندنا كما قال، لأنهم أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قيلهم الذى قالوه لموسى جهلة منهم، وهفوة من هفواتهم.

ـ ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها. قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القوم بعد أن أحيي اللّه تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: واللّه ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق. قال اللّه تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

ـ ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعا وقدرا. فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه اللّه تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

ـ ومنها: أن بنى إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل. ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي،لا يصلح أن يكون إلها معبودا من دون اللّه تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

## بنو إسرائيل فى سورة البقرة:

وبحسبك ـ أيها القارىء الكريم ـ أن تعلم أن أطول سورة فى القرآن الكريم سميت بهذا الاسم ـ سورة البقرة ـ وهي غرة السور المدنية، وأن المدنية كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأكثرهم جدالا فى دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم.

بحسبك أن تعلم هذا وذاك ـ كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد اللّه دراز ـ [2] لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة، نعنى دعوة بنى إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة، ولتعلم حكمة ذلك التبسط فى الحديث معهم تارة، والحديث عنهم تارة

---

(١) تفسير الطبري: ١ : ٣٥٤.

(٢) النبأ العظيم: ١٧٨ وما بعدها بتصرف.

أخرى، بألوان تختلف هجوما، ودفاعا، واستمالة، واستطالة، إلى ما بعد نصف السورة.

وذلك فى ثلاث وعشرين ومائة آية (١)

وستري حين تنتقل فى هذه الأحاديث مرحلة ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها.

بدأ الكلام معهم ـ كما سبق ـ بآية فذة، هي قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (٢)

وهى على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله: ففيها يناديهم بأحب أسمائهم، وأشرف أنسابهم، ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالا، ويبنى على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبهم.

. ثم رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج وبقدر معلوم، فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به، في ست آيات سبق أن تحدثنا عنها ـ هي قوله تعالى:

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (٣)

وبين مقدار النعمة التى امتن بها عليهم في قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٤)

ومقدار المخافة التى خوفهم منها في قوله جل شأنه:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ (٥)

---

(١) البقرة: ٤٠ ـ ١٦٢.　(٢) البقرة: ٤٠.　(٣) البقرة: ٤١ ـ ٤٦.

(٤) البقرة: ٤٧.　(٥) البقرة: ٤٨.

ثم قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: يذكر فيه سالفة اليهود، منذ بعث فيهم موسى عليه السلام.

القسم الثاني: يذكر فيها أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية.

القسم الثالث: يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.

القسم الرابع: يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة.

## سالفة اليهود:

وقد استهل الخطاب في هذا القسم بثماني آيات، يعرف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

إلى قوله جل شأنه:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها، وسرى نفعها، من الأصول إلى الفروع، فجعل يذكرهم بأيام الله فيهم، يوم أنجاهم من آل فرعون، ويوم أنجاهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه، ويوم واعدهم بإنزال الكتاب عليهم، ويوم حقق وعده بإنزاله، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله، ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظائم عليه، وإنها لنعم جليلة «سابقة للذنب ولاحقة» تلين ذكراها القلوب، وتحرك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره.

وقبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المطمعة للشاكرين في المزيد، إلى تذكيرهم بجرائمهم وماحاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامتثال والاعتبار جعل بين الحديثين برزخا مزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به، بعد أن أعد النفس للسير على هذا البرزخ بالتفاتة يسيرة، فيها رمز الإعراض وعدم الرضا، فبين أنه تعالى متعهم فوق هذا كله متاعا حسنا، إذ ظلل عليهم الغمام، ورزقهم من الطعام والشراب رزقا هنيئا من حيث لا يحتسبون، ومن حيث لا كد ولا نصب قال تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ

---

(١) البقرة: ٤٩ ـ ٥٦.

﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١)

فظلموا أنفسهم، وبطروا تلك النعمة، وحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزوا ولعبا، واقترحوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء، فألزمهم الله ما التزموا، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وهنا محض الحديث لذكر المخالفات والعقوبات، فذكر أنهم باءوا بغضب من الله، لأنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا النبيين ـ غير أنه استثني المؤمنين منهم من هذا الغضب ـ وتمردوا على أوامر التوراة جملة، حتى أرغموا عليها، ثم تولوا عنها بعد ذلك، حتى صاروا جديرين بأن ينزل بهم ما نزل بأهل السبت، لولا فضل الله عليهم، وأنهم تباطئوا فى تنفيذ أمر نبيهم، وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا فى بعض تبليغه عن ربه أنه هازل فيه غير جاد..

وأراد القرآن الكريم أن يصل حاضرهم بماضيهم، فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال فى هذه الآية التي ختم بها القسم الأول:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

فقوله: «من بعد ذلك» كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته، كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار، وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع، حتي يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر، ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة، بصيغة الجملة الإسمية فى قوله: «فهي كالحجارة» دون أن يقول: فكانت كالحجارة.

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطئة لتغيير الأسلوب فيهم، فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابيا عن الحكمة، ويصير جديرا بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلب سليم.

وهكذا ينتقل الكلام من الحديث معهم فى شأن سلفهم إلى الحديث معنا فى شأن أنفسهم.

## اليهود المعاصرون للبعثة:

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سنن ما قبلها وما بعدها من السرد الإخبارى، جملة استفهامية يكتنفها حرفان عجيبان:

(١) البقرة : ٥٧ .
(٢) البقرة: ٧٤.

أحدهما: يعيد إلى الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول.

والآخر: يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم.

وتقع هي بين التاريخين: القديم والحديث، موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة، بين أسباب مضت وأسباب تأتي، وذلك قوله تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]

إلى قوله:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2]

فهذه الفاء تقول لنا: أبعد كل ما قصصناه يطمع طامع في إيمان هؤلاء القوم، وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوث؟ وهذه الواو تقول:

﴿هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾[3]

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي، فيقص علينا من مساوئ الحاضرين منهم ومنكرات أفاعيلهم وأقاويلهم زهاء عشرين سببا، لا تبقى مطمعا لطامع في إيمانهم، سواء منها ما كان مختصا بهم، وما كان يشاركهم فيه غيرهم من أسلافهم أو من النصارى أو الوثنيين.

ثم لا يدع زعما من مزاعمهم إلا وقفي عليه بما يليق من الرد والتفنيد.

وقد بدأ هذا الوصف بتقسيمهم إلى فريقين:

علماء يحرفون كلام الله، ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم، لئلا يكون حجة عليهم.

وجهلاء أميين، هم أسارى الأماني والأوهام، وضحايا التضليل والتلبيس الذي يأتيه علماؤهم.

فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمة، جاهلها مضلل مخدوع، يأخذ باسم الدين ما ليس بدين، وعالمها مضلل خادع، يكتب الكتاب بيده، ويقول: هذا من عند الله؟!

---

(١) البقرة: ٧٥. (٢) البقرة: ١٢١. (٣) المؤمنون: ٦٣.

وثنى ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة، ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة. ولقد أمر النبي ﷺ أن يوسع هذا الزعم دحضا وإبطالا، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم، فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا، ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلهي الذى لا يعرف شيئا من الظلم، ولا المحاباة لأحد، بل الخلق أمامه سواء: كل امرئ رهين بعمله، ومن يعلم سوءا أو حسنا يجز به، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم، مبينا لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيآت، وأحاطت بهم خطيآتهم:

ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتم؟!

ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم؟!

ثم آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض، وحكمتم أهواءكم فى الشرائع، فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم!

ثم أتبع ذلك سائر هناتهم، فذكر:

١ ـ تصامهم عن سماع الحق، بدعوى أن قلوبهم مقفلة!

٢ ـ كفرهم بالكتاب الجديد؛ لأنه أنزل على غيرهم، بعد أن كانت أعناقهم مشرئبة إليه، ينتظرون ظهوره على يد نبي ينصرهم على المشركين!

٣ ـ دعواهم القيام بواجبهم، وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى، مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم، وتلك شنشنتهم منذ عبدوا العجل وأشربوا حبه فى قلوبهم!

٤ ـ زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك، بكراهتهم الموت، وشدة حرصهم على الحياة!

٥ ـ عداوتهم لجبريل؛ لأنه أنزل الكتاب على غيرهم، مع أنه إنما أنزل بعلم الله!

٦ ـ تكرر نبذهم للعهود!

٧ ـ اشتغالهم بكتب السحر، وترك كتب الله وراء ظهورهم!

٨ ـ ليهم ألسنتهم في خطاب الرسول بكلمة تنطوى على الاستهزاء به والطعن فى دينه، وإن كان ظاهرها التعظيم له، وهى قوله «راعنا» وهى كلمة ظاهرها الأدب، ولكنها

في العربية لها معان أخرى حمقاء.

وفى العبرانية كلمة شتم قريبة منها، فإن لفظ «رع» عند اليهود معناه شقي شرير. ولفظ «راع» معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم«راعينو» ومعناه فى الخطاب أنت ضرنا وشقوتنا.. ولعلهم ـ والله أعلم ـ كانوا يلوون ألسنتهم في النطق ليقربوها من الصيغة العربية، سترا لنيتهم، واكتفاء بالرمز المفهوم فيما بينهم. فأمر الله المؤمنين أن يخاطبوا الرسول بقول «انظرنا» حتى لا يجد المنافقون سبيلا إلى التلاعب بلفظ ذي وجهين، وأيضا فإن «راعنا» كلمة يقولها السائل المستقصي، يطلب بها إصغاء المسئول إليه، حتى يفرغ هو من أسئلته. وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال. فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع، حتى لا يحتاجوا إلى السؤال، وأن يقولوا «انظرنا» وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت مما يقال له، لا الزيادة عليه.

- أو يراد أيضا إحراجه بكثرة الأسئلة والمقترحات، كما سئل موسى من قبل.. وقد سبق هذا فى قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة!

٩ـ حقدهم وأثرتهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمشركين، وكراهيتهم أن ينزل الوحي على غيرهم، مع أن لله أن يختص بنبوته من يشاء، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها!

١٠ ـ رغبة كثير منهم فى أن يردوا المؤمنين كفارا!

١١ ـ زعم كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرهم، أماني يتمنونها بغير برهان!

١٢ ـ طعن كلتا الطائفتين في أختها بقول اليهود: ليست النصارى على شيء، وقول النصارى: ليست اليهود على شيء، وطعن المشركين فى كلتيهما!

١٣ـ اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله!

١٤ ـ اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه!

١٥ ـ اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسل، حتى يكلمهم الله بغير واسطة، أو ينزل عليهم آية ملجئة!

ثم ختم هذه الهنات بادعاها إلى اليأس من إيمانهم، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم، فكيف يطمع هو فى استتباعهم إلى هداه؟!

كلا، ولكن حسبه أن الراسخين فى العلم منهم، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذى جاء به، والكافرون هم الخاسرون.

## قدامى المسلمين من لدن إبراهيم:

وشأن المصلح الحكيم فى دعوته شأن الزارع، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقى فيها البذور الصالحة، أو يغرس فيها الأشجار النافعة.

وكذلك الداعي الحكيم، يبدأ بالنفوس فيلويها عن الباطل والفساد، ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى.

فهذان دوران، يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية وفي الثاني بالتكميل والتحلية.

وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد، في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه.

ورأيته قد أوسع البيان في ذلك، حتى أتى على نهاية الدور الأول:

أليس من الحق إذاً أن يبدأ الدور الثانى، فيبين الطريق السوي الذى يجب أن يسلكوه؟

ثم رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله، والعلم الذى علّمه لنبيه، وذكر الفريق الذى يرجي إيمانهم به من أهل الكتاب، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، أليس هذا الاختتام نفسه مطلعا تشرف النفس منه على هذا الافتتاح؟

ثم رأيت الحديث في الدور الأول منقسما إلى قسمين:

قسم يتحدث فيه عن ماضى اليهود.

وقسم يتحدث فيه عن حاضرهم.

ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين، عن ماضي المسلمين وعن حاضرهم؟

ذلك هو ما تراه فيما يلى:

بل سترى ما هو أتم مقابلة ومشاركة، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بنى إسرائيل، والكلام فى القسم الثاني على سنن التحدث عنهم، كما جرى هنالك في القسمين سواء.

وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدّر بها أول الحديث هناك قد صدّر بهما أول الحديث هنا، ليدعوهم إلى اعتناق الحق، بمثل ما دعاهم إلى اجتناب الباطل، وليتقرر فى نفس السامع من أول الأمر أن الحديث سيعود كما بدأ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطريق، وبمعني جديد، هو عدل لذلك المعنى القديم:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ○ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

وهكذا أنشأ يدعو بني إسرائيل إلى طريق السلف الصالح، لا بأسلوب الأمر والتحريض الذى جرب من قبل فلم ينجع فيهم، بل بأسلوب قصصي جذاب، يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم عليه السلام وأبنائه وأحفاده فى العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتساب إليها.. مكررا على لسانهم جميعا تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه، فتوارثها أبناؤه وأحفاده، يوصى كل منهم بها بنيه: كلمة «الإسلام لله رب العالمين».

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢)

وتراه فى أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم عليه السلام وإمامته للناس، لا ينسى أن يسجل كلماته التي دعا بها ربه أن يجعل من ذريته إماما للناس كما جعله هو.

ثم تراه حين يروى قيام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء البيت المعظم، الذي جعله الله

---

(١) البقرة: ١٢٢ ـ ١٢٤.

(٢) البقرة: ١٣١ ـ ١٣٣.

حراما آمنا، ومثابة للناس، وقبلة لصلاتهم، لا ينسى أن يسجل تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويزكيهم:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

وبهذا وذاك يمهد لتقرير الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمته بذينك النبيين الجليلين. لاصلة النبوة النسبية فحسب، بل صلة المبدأ، ورابطة الوحدة الدينية أيضا ــ كما أسلفنا ــ فهم من ذريتهما، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما، وملتهم ملتهما، وقبلتهم قبلتهما، ومثابتهم في حجهم مثابتهما.

ويقرر فى الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب، وهم عن ملتهما منحرفون، ولوصيتهما مخالفون!

فماذا يغني النسب عن الأدب؟

ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

## حاضر المسلمين وقت البعثة :

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف، وخرج الكلام من التلويح إلى التصريح، فأقبل

---

(١) البقرة: ١٢٥ ــ ١٢٩.      (٢) البقرة: ١٣٤.

يقرر ـ في جلاء ـ صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة في أصول ملتها، وفي أهم فروعها، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة، وبالطعن في قبلتهم تارة أخرى، ويكر على كلتا المحاولتين الهدم والاستئصال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٣)

إلى قوله جل شأنه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (١)

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امتزج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قبلته، فانظر كيف كان ذلك تأسيسا قويا لما يبنى عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم.

قال في شأن الملة: إن أهل الكتاب يدعونكم ـ بعد هذا البيان ـ أن تكونوا هودا أو نصارى. فقولوا لهم: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا، وعرفوهم جلية الأمر في هذه الملة الحنيفية، وأنها إيمان بالله، وإيمان بكل ما أنزل على النبيين، لا نفرق بين أحد منهم، هذه عقيدتنا بيضاء ناصعة، فأي ركنيها تنقمون منا. وفي أيها تخاصموننا؟

أفي الله وهو ربنا وربكم، أم في إبراهيم وبنيه؟

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

وكان هذا الترديد وحده كافيا لإفحامهم، وإغلاق الباب في وجوههم من هذه الناحية، إذ تبين أن أصول هذه الملة أمنع من أن تقبل الجدال في شيء منها..

فانتقل عنها وشيكا إلى إبطال محاولتهم الأخرى في مسألة الكعبة المعظمة، التي عليها

---

(١) البقرة: ١٣٥، ١٣٦. (٢) البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢. (٣) البقرة: ١٤١

يدور العمل بشعيرتين هما أعظم شعائر الإسلام وأظهرها: الصلاة والحج، والتي قد تقرر ما لها من الأصل الأصيل في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مصلى.

ولكن هذا لم يكن كافيا لإسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المسلمين إليها، وتركهم القبلة التي كانوا عليها مطعنا على النبوة ـ كما سبق ـ فمست الحاجة إلى مزيد بسط فى شأنها، تتقرر به الحجة، وتدحض به الشبهة، ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنايته:

فيأمر النبى بادئ ذى بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل، جواب عزة وإباء يرد الأمر فيه إلى من لا يسأل عما يفعل، قائلا لهم: إن الجهات كلها سواء، يوجهنا الله منها إلى ما يشاء، وهو الذى يهدى إلى الصراط المستقيم.

ثم أخذ يأمر النبى تارة، والمؤمنين تارة، ويأمرهما معا تارة أخرى، في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة، حيث هم وفى كل مكان يقيمون فيه حضرا، وفى كل مكان يخرجون منه سفرا.

وطفق ينثر فى تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد،فيقول:

إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختبارا لإيمان المهاجرين، ليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وأما تشريع هذه القبلة الباقية فإنه ينطوى على الحكم البالغة، والمقاصد الجليلة، فهى القبلة الوسطى التى تليق بكم أيتها الأمة الوسطى، وهي القبلة التي ترضاها يأيها النبى، والتى طالما قلبت وجهك فى السماء مستشرفا إلى الوحي بها، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم، وإن كانوا يكتمون ذلك حسدا وعنادا، وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده، وأخيرا هي القبلة التي لا تبقى لأحد من المنصفين حجة عليكم، أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم.

ولكن لا تخشوهم، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله، واصبروا ولا تحزنوا على من سيقتل منكم فى هذه السبيل، فإن الموت فيها هو الحياة الباقية.

ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صدا عن الشعائر التي فى داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صد عما حوله من الشعائر.

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾(١)

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحوما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم عليه السلام، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون.

أرأيت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن الكريم في دعوة بني إسرائيل، كيف رتبها مرحلة مرحلة، وكيف سار فى كل مرحلة منها خطوة خطوة!

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين.

فهى فى جملتها مناجاة للنبى والمؤمنين فى خاصة شأنهم، وفيما يعنيهم من أمر دينهم، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين، لوّن كل طرف منها بلون المقصد الذى يتصل به، فالتقى المقصدان فيها على أمر قَدْ قُدِر.

ألم تر كيف بدأها بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها حتي جلاها بيضاء للناظرين، فكانت هذه البداية كما ترى نهاية لتلك المعارك الطويلة التى حورب فيها الباطل فى كل ميدان!

ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين علي تلك الحقائق النظرية والعملية، ويحرضهم على الاستمساك بها في كثير من الآيات.. أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة؟

بلي.. إن ذلك هو ما توحي به سياقة هذه النجوى المتواصلة، التي مدت في خطاب المؤمنين مدا، وحولت مجرى الحديث معهم رويدا رويدا، حتي صار كل من ألقي سمعه إليها مليا، يسمع في طيها نداء خفيا: أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهادا، وأقبلنا على الأولياء تعليما وإرشادا، وأن قد طوينا كتاب الفجار، وجئنا نفتح كتاب الأبرار، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تكن إلا طليعة من كتائب الحق، تنبئ أن

(١) البقرة: ١٥٨.

سيتلوها جيشه الجرار، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار.

ألا ترى الميدان قد أصبح خاليا من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراءى لك فى ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضا أصول جامعة نظرية، تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية.. ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها حتى تبلغ الشمس ضحاها؟

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة. فلو أنها أقبلت عليها الآن عدا وسردا ما حسبنا الحديث عنها حديثا مقتضبا.

لكن القرآن الكريم قد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس، لم يشأ أن يهجم علي المقصود مكتفيا بهذا التمهيد، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد..

## أشد الناس عداوة:

وفي القرآن الكريم صور كثيرة فاضحة لليهود، ولما كانوا يبيتون للإسلام من كيد، ويدبرون له من فتن، عرضنا لبعضها!

ولقد كانت الأمة المسلمة تتلقى المنهج الرباني، لتقرر ـ وفق توجيهاته وتقريراته ـ خطتها وحركتها، ولتتخذ [(١)] ـ وفق هذه التوجيهات والتقريرات ـ مواقفها من الناس جميعا.

فهذا الكتاب كان هو موجهها ومحركها ورائدها ومرشدها.. ومن ثم كانت تغلب ولا تُغلب؛ لأنها تخوض معركتها مع أعدائها وفق المنهج الرباني المباشر، وكان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية..

وهذه الإرشادات الربانية ما تزال.. وتلك التقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال..

وعلينا أن نتلقي هذه التقريرات وتلك الإشارات كأننا نخاطب بها اللحظة، لنقرر

---

(١) في ظلال القرآن : ٢ : ٩٥٩ وما بعدها بتصرف.

على ضوئها مواقفنا من شتى الناس، ومن شتي المذاهب والمعتقدات والآراء، ومن شتى الأوضاع والنظم وشتى القيم والموازين.. اليوم وغدا وإلى آخر الزمان:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (٢)

إن صيغة العبارة تتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان..

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة، وأمر مقرر يراه كل من يرى، ويجده كل من يتأمل!

نعم، إن العطف بالواو فى التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين، ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا.. ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو فى التعبير العربى! إنه ـ على الأقل ـ يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغيرمن الحقيقة الواقعة، وأنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا.

ونقول: إن هذا «على الأقل». ولا ينفى هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا.. وهو ما يؤيده ظاهر التعبير!

وحين يستأنس في تفسير هذا التقرير الربانى بالواقع التاريخى المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد فى تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمل إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا!

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التى قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة. وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة.وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفى وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التى شنها اليهود على الإسلام، وعلى رسول الإسلام ﷺ، وعلى الأمة المسلمة فى تاريخها الطويل، والتى لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها فى أرجاء الأرض جميعا!

لقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين، منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس

---

(٢) المائدة: ٨٢.

والخزرج على الإسلام، فلم يعد لليهود فى صفوفهم مدخل ولا مخرج، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه معالم الأخوة بين المهاجرين والأنصار، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة، وأمسك بزمامها خاتم النبيين ﷺ، فلم تعد لليهود فرصة للتسلط!

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التى تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، وأفادتها من قرون السبى فى بابل، والعبودية فى مصر، والذل فى الدولة الرومانية!

ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول!

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة، وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة ـ كما سيأتى ـ لحرب الجماعة المسلمة، ويضيفون إلى ذلك العداء ـ كما عرفنا ـ هذا القول:

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[1]

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق، استداروا يكيدون له بدس المفتريات فى كتبه التى لم يسلم منها إلا القرآن الكريم الذى تكفل الله عز وجل بحفظه سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]

ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن، عن طريق استخدام حديثى العهد بالإسلام، ومن ليس لهم فيه فقه، ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض.. حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام فى كل شبر على وجه الأرض، وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع، ويصنعون الأبطال، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل معلم من معالم هذا الدين!

وصدق الله العظيم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة، وجمع بين اليهود من

---

(١) النساء: ٥٠.    (٢) الحجر: ٩.

بني قريظة وغيرهم ـ كما سيأتى ـ يهود!

وإن الذى قاد حملة الوضع والكذب في الروايات والسير والتاريخ.. يهود!

وإن الذى كان وراء إثارة النعرات القومية الجاهلية في دولة الخلافة الأخيرة، ووراء عزل الشريعة عن الحكم، ووراء إلغاء الخلافة.. يهود!

وإن وراء ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طوالع البعث الإسلامى، فى كل مكان عل وجه الأرض.. يهود!

ووراء النزعة المادية الإلحادية..يهود!

ووراء النزعة الحيوانية الجنسية .. يهود!

ووراء النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط..يهود!

ولقد كانت الحرب المعلنة التى شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا، وأعرض مجالا، من تلك التى شنها عليه المشركون والوثنيون ـ على ضراوتها قديما وحديثا!

إن المعركة مع مشركى العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما فى جملتها!

وكذلك كانت المعركة مع فارس فى العهد الأول!

أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة، ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية.. التي تعد الماركسية مجرد فرع لها، وليس هناك ما يقارب معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية، التي سنلقي الضوء عليها، إن شاء الله تعالى، فى دراسات خاصة تحت عنوان: «الرسول ﷺ والنصارى وجها لوجه».

فإذا قرأنا:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾

وأبصرنا تقدم اليهود فى النص على الذين أشركوا.. ثم أبصرنا هذا الواقع التاريخى، فإننا ندرك طرفا من حكمة الله فى تقديم اليهود على الذين أشركوا!

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة، التى ينغل الحقد فى صدورها على الإسلام وعلى نبى الإسلام، فيحذّر الله نبيه وأهل دينه منها!

ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه!

## الفصل الثانى

# معركة عقيدة

حرب مستمرة ـ «إن الهدى هدى الله» ـ التحذير من اتباعهم ـ «وقطعناهم في الأرض أمما» ـ سماحة وتحذير ـ النهى عن موالاتهم ـ قصة قارون ـ سخط الله عليهم ولعنه إياهم.



## حرب مستمرة:

إن الآيات القرآنية التي تتحدث عن أهل الكتاب تحمل الاتهام والإدانة لبنى إسرائيل ! وتكشف المستور من خبثهم ومكرهم بآيات الله وبرسل الله، وبعباد الله، عبر التاريخ!

وتسجل عليهم أنهم يكفرون بآيات الله، وينكرون الحق بين يديها، مكابرة وجحودا، وعنادا وكنودا، وبغيا وحسدا ـ كما أسلفنا ـ وأنهم إذ كفروا بآيات الله، وإذ أهلكوا أنفسهم عن عمد بهذا الكفر، فإنهم يجرون من يستطيعون جره معهم من الناس، إلى الهاوية التي سقطوا فيها، ولذلك كان من سعيهم فى الحياة أن يصدوا الناس عن سبيل الله وأن يضلوهم عنها، أو يخرجوهم منها إن استطاعوا، حتى لا ينال أحد خيرا، وصدق الله العظيم:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١)

إن الإحنة التي يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هي الإحنة المتعلقة بالعقيدة .(٢) إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدي. يكرهون لها أن تفيء إلى عقيدتها الخاصة في قوة ويقين. ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا المنهج والإلواء بها عن هذا الطريق:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾

فهو ود النفس، ورغبة القلب، والشهوة التى تهفو إليها الأهواء من وراء كل كيد، وكل دس، وكل جدال، وكل تلبيس!

---

(١) آل عمران: ٦٩ ـ ٧٤.     (٢) المرجع السابق: ١ ـ ٤١٣ وما بعدها بتصرف.

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر، ضلال لا شك فيه.فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى. فهم يوقعون أنفسهم فى الضلالة، فى اللحظة التى يودون فيها إضلال المسلمين. فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم فى الضلال البهيم:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم ما استقاموا على إسلامهم، وما لهم عليهم من سبيل. والله سبحانه يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين، وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقى المسلمون مسلمين.

هنا يقرع أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ولقد كان أهل الكتاب وقتها ــ وما يزالون حتى اليوم ــ يشهدون الحق واضحا في هذا الدين سواء منهم المطلعون على حقيقة ما جاء فى كتبهم عنه من بشارات وإشارات ــ وكان بعضهم يصرح بما يجد من هذا كله، وبعضهم يسلم بناء على هذا الذى يجده في كتبه ويشهد متحققا أمامه ــ وسواء كذلك غير المطلعين، ولكنهم يجدون فى الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان .. غير أنهم يكفرون .. لا لنقص فى الدليل. ولكن للهوى والمصلحة والتضليل.. والقرآن يناديهم:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

لأنها الصفة التي كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الجديد.

كذلك يناديهم مرة أخرى ليفضح ما يقومون به من لبس الحق بالباطل، لإخفائه وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل، على علم وعن عمد وفي قصد. وهو أمر مستنكر قبيح!

وهذا الذى ندد الله به سبحانه من أعمال أهل الكتاب حينذاك، هو الأمر الذى درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة.. فهذا طريقهم على مدار التاريخ.. اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى .. ثم تابعهم الصليبيون!

وفي خلال القرون المتطاولة دسوا ــ مع الأسف ــ في التراث الإسلامى ما لا سبيل

إلى كشفه إلا بجهد القرون! ولبسوا الحق بالباطل ما وسعهم الجهد!

دسوا ولبسوا فى السيرة النبوية، مما جعلنى أقدم هذه الدراسات فى تلك الصور الموضوعية الجديدة، وفق أصول التحديث رواية ودراية.

ودسوا ولبسوا في المناهج التعليمية حتى تركوا تيها وقع فيه الكثيرون الذين لم يفيئوا إلى معالم الطريق!

ومن ثم وجدنا كثيرين في صورة المستشرقين وتلاميذ المستشرقين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في كثير من البلاد الإسلامية!

وما يزال هذا الكيد قائما ومطردا!

وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين ـ كما عرفنا ـ والحمد لله على فضله العظيم.

كذلك يعرض بعض المحاولات التى يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة المسلمة فى دينها، وردها عن الهدى، من ذلك الطريق الماكر اللئيم:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

وهى طريقة ماكرة لئيمة.. فإن إظهارهم الإسلام ثم الرجوع عنه، يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته .. يوقعهم فى بلبلة واضطراب. وبخاصة العرب الأميين، الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الرسالات والكتب. فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون، حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيئة ونقص فى هذا الدين. وتأرجحوا بين اتجاهين، فلم يكن لهم ثبات على حال!

وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم فى شتى الصور التى تناسب تطور الملابسات والناس فى كل جيل..

ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة، فلجأت القوى المناهضة للإسلام فى العالم إلى طرق شتى، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة!

إن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشا جرارا من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين، وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين، يحملون

أسماء مسلمين؛ لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة!

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن الصحافة طالعتنا منذ فترة بأن المرشح لمنصب سفير الصهاينة فى أمريكا يحمل اسم محمد! وهو من سلالة مسلمة!

هذا الجيش الجرار من العملاء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة وسياسة، وموجه لتوهين قواعدها من الأساس!

في صورة رفض السنة لمزاعم يفترونها!

وفي صورة التهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء، وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق. والدق المتواصل على رجعيتها!

والدعوة للتفلت منها. وإبعادها عن مجال الحياة، إشفاقا عليها من الحياة، أو إشفاقا على الحياة منها!

وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها!

وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية. وإطلاق الشهوات من عقالها، وسحق القاعدة الخلقية التى تستوى عليها العقيدة النظيفة العفيفة لتخر فى الوحل الذى ينثرونه فى الأرض نثرا !

ويشوهون التاريخ الإسلامي كله، ويحرفونه كما يحرفون النصوص !

وهم بعد يحملون أسماء المسلمين !

وهم بهذه الأسماء يعلنون الإسلام وجه النهار .. وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره .. ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم. لا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم!

وكان أهل الكتاب يقولون بعضهم لبعض: تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم ! وليكن هذا سرا بينكم لا تبدونه ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

وفعل الإيمان حين يتعدى باللام يعنى الاطمئنان والثقة. أى ولا تطمئنوا إلا لمن تبع

دينكم، ولا تفضوا بأسراركم إلا لهؤلاء دون المسلمين!

وعملاء الصهيونية والصليبية اليوم كذلك !

إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر .. هو الإجهاز على هذه العقيدة في الفرصة السانحة التي قد لا تعود .. وقد لا يكون هذا التفاهم في معاهدة أو مؤامرة. ولكنه تفاهم العميل مع العميل على المهمة المطلوبة للأصيل !

ويأمن بعضهم لبعض، فيفضي بعضهم إلى بعض .. ثم يتظاهرون ـ بعضهم على الأقل ـ بغير ما يريدون وما يبيتون .. والجو من حولهم مهيأ، والأجهزة من حولهم معبأة .. والذين يدركون حقيقة هذا الدين في الأرض كلها أكثرهم مغيبون أو مشردون:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

**«إن الهدى هدى الله»** :

وهنا يوجه الله نبيه ﷺ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله، وأن من لا يفيء إليه لن يجد الهدى أبدا فى أى منهج، ولا فى أى طريق:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾

ويجيء هذا التقرير ردا على مقالتهم:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

يجيء تحذيرا للمسلمين من تحقيق الهدف اللئيم. فهو الخروج من هدى الله كله. فلا هدى إلا هداه وحده، وإنما هو الضلال والكفر ما يريده بهم هؤلاء الماكرون!

يجيء هذا التقرير قبل أن ينتهى السياق من عرض مقولة أهل الكتاب كلها.. ثم يمضى يعرض بقية تآمرهم بعد هذا التقرير:

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾

بهذا يعللون قولهم:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

فهو الحقد والحسد والنقمة أن يؤتى الله أحدا من النبوة والكتاب ما آتى أهل الكتاب !

وهو الخوف أن يكون فى الاطمئنان للمسلمين واطلاعهم على الحقيقة التى يعرفها

أهل الكتاب، ثم ينكرونها، عن هذا الذين، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله!

كأن الله سبحانه لا يأخذهم بحجة إلا حجة القول المسموع !

وهي مشاعر لا تصدر عن تصور إيماني بالله وصفاته، ولا عن معرفة بحقيقة الرسالات والنبوات، وتكاليف الإيمان والاعتقاد !

ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم ويعلم الجماعة المسلمة حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة ورسول:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾

وشاءت إرادة الله أن يجعل الرسالة والكتاب فى غير أهل الكتاب، بعد ما خاسوا بعهدهم مع الله، ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم، وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل، وتخلوا عن الأمانة التي ناطها الله بهم، وتركوا أحكام كتابهم وشريعة نبيهم، وكرهوا أن يتحاكموا إلى كتاب الله بينهم. وخلت قيادة البشرية من منهج الله وكتابه ورجاله المؤمنين.. عندئذ سلم القيادة، وناط الأمانة، بالأمة المسلمة. فضلا منه ومنّة:

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

وليس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلا فى كتاب.. وبالخير ممثلا فى رسالة .. وبالرحمة ممثلة فى رسول ..

فإذا سمع المسلمون هذا أحسوا مدى النعمة، وقيمة المنة، فى اختيار الله لهم، واختصاصه إياهم بهذا الفضل.. واستمسكوا به في إعزاز وحرص، وأخذوه بقوة وعزم، ودافعوا عنه فى صرامة ويقين، وتيقظوا لكيد الكائدين، وحقد الحاقدين.. وهذا ما كان يربيهم به القرآن الكريم، والرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وهو ذاته مادة التربية والتوجيه للأمة المسلمة فى كل جيل.

## التحذير من اتباعهم:

وإن طاعة أهل الكتاب، والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة.. كما تحمل معنى الشك فى كفاية منهج الحق لقيادة الحياة وتنظيمها، والسير بها صعدا فى

طريق النماء والارتقاء[1] .. وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس، وهى لا تشعر به، ولاترى خطره القريب.

هذا من جانب المسلمين..

فأما من الجانب الآخر، فأهل الكتاب ـ كما عرفنا ـ لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها، فهذه العقيدة هى صخرة النجاة، وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة.

وهم يعرفون هذا جيدا.. يعرفونه قديما ويعرفونه حديثا.. ويبذلون فى سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعدة !

وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين !

وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن ينتسبون ـ زورا ـ للإسلام، جنودا مجندة، لتنخر لهم فى جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعا غير أوضاعها، وقيادة غير قيادتها..

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعا واتباعا، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله فى سبيل الغاية التى تؤرقهم، وسيقودونهم ويقودون الجماعة من ورائهم إلى الكفر والضلال !ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾[2]

وما كان يفزع المسلم ـ حينذاك ـ ما يفزعه أن يرى نفسه منتكسا إلى الكفر بعد الإيمان. وراجعا إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة. وهذا شأن المسلم الحق في كل مكان، ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطا يلهب الضمير، ويوقظه بشدة لصوت النذير !

ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير !

فياله من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله فيهم،

---

(١) المرجع السابق: ٤٣٨ وما بعدها بتصرف.

(٢) آل عمران : ١٠٠.

ودواعى الإيمان حاضرة، والدعوة إلى الإيمان قائمة، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه النور:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١)

أجل. إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن فى ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان..

وإذا كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله ﷺ باق..

ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن الكريم، كما خوطب به الأولون، وطريق العصمة بين، ولواء العصمة مرفوع.

أجل. إنه الاعتصام بالله يعصم، والله سبحانه هو الحي القيوم.

وآفة رجال الدين عند هؤلاء المفسدين، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢)

وهذه الحال التي يذكرها القرآن الكريم عن هذا الفريق من أهل الكتاب (٣)، نعرفها نحن جيدا في زماننا. فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم، ويلوونها ليا، ليصلوا منها إلى مقررات معينة، ويزعمون أنها مدلول هذه النصوص، وأنها تمثل إرادة الله منها!

بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها. معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يلجئون إليها النصوص إلجاء!

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيدا في بعض هؤلاء الذين ينسبون إلى الدين ظلما! الذين يحترفون الدين، ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها، ويحملون النصوص ويجرون

---

(١) آل عمران: ١٠١. (٢) آل عمران: ٧٨. (٣) المرجع السابق: ٤١٩ بتصرف.

بها وراء هذه الأهواء، حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق، وأن هناك عرضا من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء، ويلوون أعناق هذه النصوص ليا لتوافق هذه الأهواء السائدة، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية. ويبذلون جهدا لاهثا فى التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية، ليوافقوا بين مدلول آية وهوى من الأهواء السائدة التى يهمهم تمليقها:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

كما يحكى القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء. فهى آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم. إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه، حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التى يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض !

وتفسد الذمة، حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله، ومجاراة أهوائهم المنحرفة، التى تصادم دين الله!

وهكذا كان التحذير من هذا المسلك الوبىء، الذى انتهى بنزع أمانة القيادة من بنى إسرائيل!

وهكذا ـ أيضا ـ حال هؤلاء الذين ينسبون إلى الدين ظلما. !

## «وقطعناهم فى الأرض أمما»:

وإزاء هذه الجرائم الغليظة، التى ارتكبها هؤلاء فى حربهم للحق والخير، وعدوانهم على معالم الهدى والنور، وإفسادهم فى الأرض!

إزاء هذه الجرائم الشنيعة، التى ذكرنا بعضها، وهى قل من كثر!

إزاء كل هذا أخذ الحق اليهود بالبأساء والضراء فى أجيالهم المتعاقبة، وأنزل بهم من البلاء ما أنزل، فرماهم بالغضب..

وضرب عليهم الذلة والمسكنة..

وجعل منهم القردة والخنازير..

وأغرى بهم الناس يسومونهم سوء العذاب فى كل مكان ينزلون به..

وقد تكشف للناس ما هم فيه من فساد وإفساد، وضلال وإضلال:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١)

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٢)

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ (٤)

فهو إذن الأبد الذى تحقق منذ صدوره(٥)، فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب. والذى سيظل نافذا فى عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة القاصمة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التى لا تخرج من معصية إلا لتقع فى معصية، ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف!

ولقد يبدو أحيانا أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عزت واستطالت! وإن هى إلا فترة عارضة من فترات التاريخ! ولا يدرى إلا الله من ذا الذى سيسلط عليهم فى الجولة الثانية، وما بعدها إلى يوم القيامة! لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة ـ كما أخبر الله نبيه فى قرآنه ـ معقبا على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه فى العقاب والرحمة:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمة العذاب.. وهو بمغفرته ورحمته

---

(١) البقرة: ٩٠. (٢) آل عمران: ١١٢. (٣) البقرة: ٦٥ ـ ٦٦.

(٤) الأعراف: ٢٦٧ ـ ٢٦٨. (٥) فى ظلال القرآن: ٣: ١٣٨٦ بتصرف.

يقبل التوبة ممن يتوب من بنى إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل.. فليس عذابه سبحانه عن نقمة ولا إحنة. إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة..

## سماحة وتحذير:

ومن ثم كان التحذير من أن يتخذ المسلمون بطانة منهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١)

إنها صورة كاملة السمات، ناطقة بدخائل نفوس هؤلاء، وشواهد الملامح تسجل المشاعر الباطنة، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآيبة!

ومع كل هذا، لعله قد آن لنا بعد هذا القول الذى أراه مجملا، وقد يراه غيرى مفصلا بعض الشىء.. لعله قد آن لنا بعد أن عرضنا ملامح معبرة لصورة يهود، أن نختم ذلك ببيان سماحة الإسلام فى وجه كل هذا العداء (٢). فالله عز وجل يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء. وألا يجعلوهم موضع ثقتهم ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها!

إنما هى مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة.. مجرد الوقاية، ومجرد التنبية إلى الخطر الذى يحيطها به الآخرون!

أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا، وبنظافة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا، وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعا، ويتقى الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لايحقد. إلا أن يحارب فى دينه، وأن يفتن فى عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله

---

(١) آل عمران: ١١٨-١٢٠.

(٢) المرجع السابق: ١:٤٥٢ بتصرف.

ومنهجه. فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يزيل العقبات التى تصد الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه فى الحياة.. يحارب جهادا فى سبيل الله، لا انتقاما لذاته.. وحبا لخير البشر، لا حقدا على الذين آذوه.. وتحطيما للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس، لا حبا للغلب والاستعلاء والاستغلال.. وإقامة للنظام القويم الذى يستمتع الجميع فى ظله بالعدل والسلام، لا لتركيز راية قومية، ولا لبناء إمبراطورية!

## النهى عن موالاتهم:

إن هذا القرآن يربى الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة[1]، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذى يقف فيه وكل صف آخر لا يرفع راية الحق، ولا يتبع قيادة رسول الله ﷺ، ولا ينضم إلى الجماعة التى تمثل حزب الله.. وعلى إشعاره أنه موضع اختيار الله، ليكون ستارا لقدرته، وأداة لتحقيق قدره فى حياة البشر، وفى واقع التاريخ. وأن هذا الاختيار ـ بكل تكاليفه ـ فضل من الله يؤتيه من يشاء، وأن مولاة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله، والنكول عن هذا الاختيار العظيم، والتخلى عن هذا التفضل الجميل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]

قال ابن جرير[3]: اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بهذه الآية، وإن كان مأمورا بذلك جميع المؤمنين:

فقال بعضهم: عنى بذلك عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول، فى براءة عبادة من حلف اليهود، وفى تمسك عبد الله بن أبى بحلف اليهود، بعدما ظهرت عداوتهم لله ولرسوله ﷺ، وأخبره الله أنه إذا تولاهم وتمسك بحلفهم أنه منهم فى براءته من الله ورسوله كبراءتهم منهما.

وقال آخرون: بل عنى بذلك قوم من المؤمنين، كانوا هموا حين نالهم بأُحد من أعدائهم من المشركين ما نالهم أن يأخذوا من اليهود عصما، فنهاهم الله عن ذلك، وأعلمهم أن من فعل ذلك منهم فهو منهم.

وقال آخرون: بل عُنى بذلك أبو لبابة بن عبد المنذر فى إعلامه بنى قريظة إذ رضوا

(١) المرجع السابق: ٢: ٩٠٧ بتصرف.

(٢) المائـدة: ٥١.

(٣) تفسير الطبرى: ٦: ٢٧٥ وما بعدها بتصرف.

بحكم سعد أنه الذبح.

وقال ابن جرير بعد أن ذكر الروايات فى ذلك: والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم فى التحزّب على الله ورسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.. ثم قال: الصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عمّ، ويجوز ما قاله أهل التأويل فيه من القول الذى لا علم عندنا بخلافه، غير أنه لا شك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى، خوفا على نفسه من دوائر الدهر؛ لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك، وذلك قوله:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾(١)

إن القرآن الكريم يربى وعى المسلم بحقيقة أعدائه(٢)، وحقيقة المعركة التى يخوضها معهم ويخوضونها معه.. إنها معركة العقيدة. فالعقيدة هى القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه.. وهم يعادونه لعقيدته ودينه، قبل أى شىء آخر وهم يعادونه هذا العداء الذى لا يهدأ، لأنهم فاسقون عن دين الله، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(٣)

هذه هى العقيدة، وهذه هى الدوافع الأصيلة!

وقيمة هذا المنهج، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية عظيمة. فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها.. أمران مهمان، سواء فى تحقيق شرائط الإيمان، أو فى التربية الشخصية للمسلم، أو فى التنظيم السلوكى للجماعة المسلمة.. فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلا، ولا يكونون فى ذواتهم شيئا، ولا يحققون فى واقع الأرض أمرا

---

(١) المائدة: ٥٢.
(٢) فى ظلال القرآن: ٢: ٩٠٨ وما بعدها بتصرف.
(٣) المائدة: ٥٩.

مالم تتم فى نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التى لاترفع رايتهم، وما لم يتمخض ولاؤهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به، ومالم يعرفوا طبيعة أعدائهم، وما لم يدركوا بواعثهم، وطبيعة المعركة التى يخوضونها معهم، وما لم يستيقنوا أنهم جميعا إلب عليهم، وأن بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء.

والآيات القرآنية هنا لا تقف عند كشف بواعث المعركة فى نفوس أعداء الجماعة المسلمة.. بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم، ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه، وليطمئن ضميره إلى المعركة التى يخوضها، وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة، وأنه لا مفر منها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [1]

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2]

ومن هذه صفاتهم، ومواقفهم من الجماعة المسلمة، وتألبهم عليها، واستهزاؤهم بدينها وصلاتها، لا مناص للمسلم من دفعهم وهو مطمئن الضمير..

كذلك تقرر الآيات نهاية المعركة ونتيجتها، وقيمة الإيمان فى مصائر الجماعات فى هذه الحياة الدنيا قبل الجزاء فى الحياة الآخرة:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [3]

---

(١) المائدة: ٥٧ ـ ٥٨.    (٢) المائدة: ٦١ ـ ٦٤.    (٣) المائدة: ٥٦.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

كما تقرر صفة المسلم الذى يختاره الله لدينه، ويمنحه هذا الفضل العظيم فى اختياره لهذا الدور الكبير: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وكل هذه التقريرات خطوات فى المنهج، وفى صياغة الفرد المسلم، والجماعة المسلمة على الأساس المتين:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

سبق أن عرفنا أن الولاية تعنى التناصر والتحالف معهم.. .هى بهذا لا تتعلق بمعنى اتباعهم فى دينهم. فبعيد جدا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى فى الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر، الذى كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفى أوائل العهد بقيام الإسلام فى المدينة، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله، بعدما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود فى المدينة..

وهذا المعنى معروف محدد فى الآيات القرآنية.. وقد جاء فى صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين فى المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام، فقال االله سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

(١) المائدة: ٦٥، ٦٦.

(٢) المائدة: ٥٤.

ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

وطبيعى أن المقصود هنا ليس الولاية فى الدين. فالمسلم ولى المسلم فى الدين على كل حال.. إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون..

وهذا النوع من الولاية هو الذى تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال، بعدما كان قائما بينهم أول العهد بالمدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شىء، واتخاذهم أولياء شىء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح فى نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين، بوصفه عقيدة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع فى الأرض، وفق التصور الإسلامى الذى يختلف فى طبيعته عن سائر التصورات التى تعرفها البشرية، وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل فى معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذى تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقى بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعى الذكى لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة فى معاملة أهل الكتاب والبر بهم فى المجتمع المسلم الذى يعيشون فيه مكفولى الحقوق، وبين الولاء الذى لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة، ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم..

وهنا نبصر آيات الله تكشف للرسول ﷺ عن حقيقة المعركة بينه وبين أهل الكتاب، ونحن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢)

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) البقرة: ١٢٠.

وتلك هى العلة الأصلية[1]، ليس الذى ينقصهم هو البرهان، وليس الذى ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق وأن الذى جاءك من ربك الحق. ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت.. لن يرضيهم من هذا كله شىء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق..

حقا، إنها العقيدة الدائمة التى نرى مصداقها فى كل زمان ومكان.. إنها هى العقيدة.. هذه حقيقة المعركة التى يشنها أهل الكتاب فى كل زمان وفى كل مكان، وفى كل جيل وفى كل قبيل، ضد الجماعة المسلمة..

إنها معركة العقيدة، هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وبين هذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما، قد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينهما، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها.. ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاما شتى، فى خبث ومكر وتورية. إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة. ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حربا باسم العقيدة ـ على حقيقتها ـ خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها.. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية.. وما إليها.. وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها!ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها.. فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كى يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها.. بينما هم فى قرارة نفوسهم: اليهودية والصليبية ـ بإضافة الشيوعية وليدة اليهودية ـ جميعا يخوضون المعركة أولا وقبل كل شىء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها جميعا طويلا، فأدمتهم جميعا!

إنها معركة العقيدة.. إنها ليست معركة الأرض وما إليها من الرايات المزيفة كلها، لغرض فى نفوسهم دفين. ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا. ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته، وهو سبحانه أصدق القائلين:

---

(١) المرجع السابق : ١٠٨:١.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

فذلك هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود!

ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

على سبيل القصر والحصر. هدى الله هو الهدى. وما عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة فى شىء منه قليل أو كثير، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وحذار أن تميل بك الرغبة فى هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق:

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

بهذا التهديد المفزع الشديد، وبهذا القطع الجازم الحاسم، وبهذا الوعيد الرهيب الرعيب.. ولمن؟ لنبى الله ورسوله وحبيبه ﷺ الكريم! إنها الأهواء.. إن أنت ملت عن الهدى.. هدى الله الذى لا هدى سواه.. وهى الأهواء التى تقفهم منك هذا الموقف، وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل!

إنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة.. وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة التى عرضنا لها من قبل!

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ـ كما عرفنا ـ(1) ولكنه منهى عن الولاء لهم بمعنى التناصروالتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقى مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض فى حربه والكيد له!

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين!فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع

---

(1) المرجع السابق: 2: 910 وما بعدها بتصرف.

المسلمين!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا فى هذا الزمان وفى كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا فى أيدى أهل الكتاب فى الأرض، للوقوف فى وجه المادية والإلحاد، بوصفنا جميعا أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله! وناسين تعليم التاريخ كله! فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:

﴿ هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[1]

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة فى المدينة، وكانوا لهم درعا وردءا !

وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتى عام!

وأهل الكتاب هم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس!

وأهل الكتاب هم الذين شردوا المسلمين فى فلسطين، وأحلوا الذين لعنوا محلهم، وأمدوهم بكل وسائل البطش والقهر، متعاونين فى هذا مع الإلحاد والمادية!

وأهل الكتاب هم الذين يشردون المسلمين أينما قدروا.. ويتعاونون فى هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية.. فى كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن ـ فى بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة ـ أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية والإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرأون القرآن الكريم، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التى هى طابع الإسلام، فظنوها دعوة الولاء الذى يحذر منه القرآن الكريم.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام فى حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد فى الأرض، تقف فى وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذى لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعى الوحيد!

وندع هؤلاء فى إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآنى، لنعى نحن هذا التوجيه القرآنى الصريح:

---

(١) النساء: ٥١.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة فى المدينة .. ولكنه فى الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم فى أى ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة.. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: « الذين آمنوا » .

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين فى المدينة وبعض أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة.. وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخى والاقتصادى والاجتماعى فى المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم فى الكيد لهذا الدين وأهله، بكل صنوف الكيد التى عددتها وكشفتها الآيات القرآنية الكثيرة، والتى سبق استعراض بعضها، والتى تولت هذه الآيات التى معنا وصف بعضها كذلك .

ونزل القرآن الكريم ليبث الوعى اللازم للمسلمين فى المعركة التى يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد فى واقع الحياة، ولينشىء فى ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين هؤلاء ومن على شاكلتهم.. المفاصلة التى لا تنهى السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم دائما. ولكنها تنهى الولاء الذى لا يكون فى قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا.. الوعى والمفاصلة إذن لا بد منهما للمسلم فى كل أرض وفى كل زمان ومكان وفى كل جيل وقبيل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة فى أى أرض ولا فى أى تاريخ.. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذا القول الصادق..

لقد ولى بعضهم بعضا فى حرب الرسالة والرسول والجماعة المسلمة فى المدينة..!

وولى بعضهم بعضا فى كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ..!

وولى بعضهم بعضا فى اغتصاب فلسطين وما يجرى فيها من قتل وتشريد ووحشية!

ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة،ولم يقع فى هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، فى صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو.. «بعضهم أولياء بعض» ليس مجرد تعبير! إنما هو اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها.. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم. والفرد الذى يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من هذا الصف ويخلع نفسه من صفته، وينضم إلى الصف الآخر؛ لأن هذه هى النتيجة الطبيعية الواقعية:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾

لقد كان هذا تحذيرا للجماعة المسلمة فى المدينة، ولكنه تحذير ليس مبالغا فيه؛ لأنه يمثل الحقيقة الواقعة. فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى ـ وبعضهم أولياء بعض ـ وهذا مفرق الطريق.

وما يمكن أن يتميع الحسم فى المفاصلة الكاملة بين المسلم وبين هؤلاء ومن على شاكلتهم، ثم يكون فى وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة من الأعمال التى تستهدف ـ أول ماتستهدف ـ إقامة نظام إسلامى يعتمد على تصور متفرد له خصائصه ومقوماته.

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم، الذى لا أرجحه فيه ولا تردد، بأن دينه هو الدين عند الله، وبأن منهجه الذى كلفه الله أن يقيم الحياة عليه، منهج متفرد، لا نظير له بين سائر المناهج، ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر، ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر، ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه.. هو وحده الذى يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الحق، فى وجه العقبات الشاقة، والتكاليف المضنية، والمقاومة العنيدة، والكيد الناصب، والألم الذى يكاد يجاوز الطاقة فى كثير من الأحيان.. وإلا فما العناء فى أمر يغنى عنه غيره، مما هو قائم فى الأرض من جاهلية.. سواء كانت ممثلة فى وثنية الشرك، أو فى انحراف أهل الكتاب ـ كما أسلفنا ـ أو فى الإلحاد السافر.. بل ما العناء فى إقامة المنهج الإسلامى، إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أوغيرهم قليلة، يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟!

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين المسلمين وأهل الكتاب، يخطئون فهم معنى الدين، كما يخطئون فهم معنى التسامح. فالدين عند الله الإسلام ــ كما عرفنا من قبل ــ والتسامح يكون فى المعاملات الشخصية،لافى التصور الاعتقادى ولا فى النظام التشريعى.. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم فى نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق منهج الحق الممثل فى الإسلام.. هذا اليقين الذى ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (١)

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (٢)

ويصور القرآن تلك الحالة التي كانت واقعة، والتي ينزل من أجلها بهذا التحذير:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة.. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء ــ وهو التناصر ــ بين المسلم وهؤلاء، إذ إنهما لا يمكن أن يتناصرا فى مجال العقيدة.. ولا حتى أمام الإلحاد مثلا ــ كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! ــ وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه!

إن الأمر فى التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد.. الدين عند الله هو الإسلام..

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء، وهو مطالب بإحسان معاملتهم ــ كما سبق ــ ما لم يؤذوه فى الدين..

والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، وهو غير مأذون فى أن يكره أحدا من هؤلاء ومن على شاكلتهم على الإسلام .. وسبق بيان ذلك.

إن قضية الولاء والتناصر قضية اعتقادية إيمانية، كما أنها قضية تنظيمية سلوكية!

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله لله .. ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومى فى حياة المسلم عن ذلك.. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف

---

(١) آل عمران: ١٩. (٢) آل عمران: ٨٥.

حقيقة الإسلام وحقيقة المنهج الإسلامى .. ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعامل فيها مع من يعادى الإسلام، أولا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه!

إنهما نهجان مختلفان، ناشئان عن تصورين مختلفين، وعن شعورين متباينين، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان !

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا اعتمادهم.. يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذي يفصل فى الموقف، أو يكشف المستور من النفاق:

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾

وعندئذ ـ عند الفتح ـ يندم أولئك الذين فى قلوبهم مرض، على المسارعة والاجتهاد فى ولاء أهل الكتاب، وعلى النفاق الذى انكشف أمره، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق، وما صاروا إليه من الخسران.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ (١)

جاء فى المنار (٢) : أى يقول بعضهم لبعض متعجبين من عاقبة المنافقين: أهؤلاء الذين أقسموا بالله أغلظ الأيمان مجتهدين فى توكيدها، إنهم منكم أيها المؤمنون وعلى دينكم، ومعكم فى حربكم وسلمكم؟ كما قال تعالى:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٣)

أى فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الإسلام تقية:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٤)

أى يسرعون إسراع الفرس الجموح، فرارا من الإسلام وأهله، وتواريا عنهم، واعتصاما منهم. أو يقولون ذلك لليهود الذين كانوا يغترون بموالاة المنافقين ومودتهم السرية

---

(١) المائدة : ٥٣.
(٢) تفسير المنار: ٦ : ٤٣٣ بتصرف.
(٣) التوبة : ٥٦.
(٤) التوبة : ٥٧ .

لهم، ويظنون أنهم إذا نقضوا عهد النبي ﷺ وحاربوه يجدون منهم أعوانا وأنصارا بين المسلمين يقاتلون معهم، أو يوقعون الفشل والتخذيل في جيش المسلمين لأجلهم، كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١)

ولقد جاء الفتح يوما، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات. ونحن على موعد قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بالعروة الوثقى، وكلما أخلصنا الولاء لله وحده. وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا. وكلما تحركنا في الحياة على هدي الله. فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا..

ونقرأ بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢)

يقول القاسمي: (٣) لما نهى تعالى ـ فيما سلف ـ عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين بقوله: «فإنه منهم» وقوله: «حبطت أعمالهم» شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق. ونوه بقدرته العظيمة. فأعلم أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلا، كما قال تعالى:

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (٤)

---

(١) الحشر: ١١ ـ ١٢.
(٢) المائدة: ٥٤ ـ ٥٦.
(٣) تفسير القاسمي: ٦: ٢٠٣٢ بتصرف.
(٤) محمد: ٣٨.

وقال تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ [1]

وقال تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [2]

وإذ ينتهي السياق من النداء الأول للذين آمنوا [3] ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى، وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام وهم لا يشعرون أو لا يقصدون.

يأتي النداء الثاني للذين آمنوا يهدد من يرتد منهم عن دينه ـ بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب ـ بأنه ليس عند الله بشيء، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين في علم الله.. إن ينصرف هؤلاء يجيء بهؤلاء.. ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة في علم الله لدينه، وهي ملامح محببة جميلة وضيئة .. ويبين جهة الولاء الوحيدة التي يتجه إليها المسلم بولائه .. ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التي يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتي يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين..

وإن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا ـ على هذه الصورة وفي هذا المقام ـ ينصرف ابتداء إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام. وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم: منسلخا من الجماعة المسلمة، منضما إليهم: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم».

وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول..

يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [4]

وهو منصب على النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار، يجمع بينهم على هذا

---

(1) النساء : ١٣٣.

(2) إبراهيم : ١٩ ـ ٢٠ وفاطر ١٦ ـ ١٧.

(3) في ظلال القرآن : ٢ : ٩١٧ وما بعدها بتصرف.

(4) المائدة : ٥٧.

النحو، الذي يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء، وأن تفرقة الإسلام فى المعاملة بين أهل الكتاب والكفار، لا تتعلق بقضية الولاء، إنما هي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض، وتمكين سلطانه في حياة البشر، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم، وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة..

إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة.. فهو وذاك. والله غني عنه وعن العالمين. والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم.

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا في هذا النداء صورة واضحة السمات قوية الملامح، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب:

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم .. الحب .. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش .. هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبد من عباده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الحق تبارك وتعالى بصفاته، كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات فى حسه ونفسه، وشعوره وكينونته كلها..

أجل، لا يقدر حقيقة هذا العطاء، إلا الذى يعرف حقيقة المعطى.. الذى يعرف من هو الله..

من هو فى عظمته ..

ومن هو فى قدرته ..

ومن هو في تفرده ..

ومن هو في ملكوته ..

من هو ، ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب .. والعبد من خلقه .. وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأول والآخر، والظاهر والباطن..

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد، لا يدركها كذلك إلا من ذاقها..

وإذا كان حب الله لعبد من عباده أمرا هائلا عظيما، وفضلا غامرا جزيلا، فإن إنعام الله على العبد، بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه.. هو إنعام هائل عظيم، وفضل غامر جزيل..

وإذا كان حب الله لعبد من عباده أمرا فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام الصادقين..

وهذا الحب من الجليل للعبد، والحب من العبد للمنعم المتفضل، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي، وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الكون، ويغمران الوجود الإنساني كله، ممثلا في ذلك العبد المحب المحبوب..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب، وهو أصل وحقيقة، وعنصر في هذا التصور أصيل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (١)

﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٢) ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ (٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (٤)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٥)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٦)

---

(١) مريم : ٩٦ . (٢) هود : ٩٠ . (٣) البروج : ١٤ .
(٤) البقرة : ١٦٥ . (٥) البقرة : ١٨٦. (٦) آل عمران: ٣١.

إن نصاعة التصور الإسلامي تصور العلاقة بين الله والناس ذلك التصور الندى الحبيب..

فهى علاقة الرحمة، كما أنها علاقة العدل..

وهى علاقة الود، كما أنها علاقة التجريد..

وهى علاقة الحب، كما أنها علاقة التنزيه ..

إنه التصور الكامل الشامل، لكل حاجات الكينونة البشرية فى علاقتها برب العالمين ..

وهنا ــ فى هذه العصبة المختارة لهذا الدين ــ يرد ذلك القول العجيب :

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

ويطلق شحنته كلها في هذا الجو، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن، وهو يضطلع بهذا العبء .. شاعرا أنه الاختيار والتفضل، والقريب من المنعم الجليل ..

ثم يمضى السياق في هذا النداء يعرض بقية السمات لهؤلاء الذين يأتى الله بهم:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وفي هذا التعبير ــ كما قال الزمخشرى ــ وجهان :

أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثانى : أنهم ــ مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين ــ خافضون لهم أجنحتهم. (١)

وهى صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين.. فالمؤمن ذلول للمؤمن.. غير عصى عليه ولا صعب.. هين لين .. ميسر مستجيب .. سمح ودود ...

وهذه هى الذلة للمؤمنين .. وما فى الذلة للمؤمنين من مذلة، ولا مهانة .. إنما هى الأخوة فى الله عز وجل .. ترفع الحواجز .. وتزيل التكلف .. وتخلط النفس بالنفس .. فلا يبقى معها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين.. وتلك هى سمة الولاية فى المجتمع الإسلامى..

---

(١) تفسير القاسمي : ٦ : ٢٠٣٩ ــ ٢٠٤٠ .

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة .. هى التى تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه .. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصى به ..

وماذا يبقى له فى نفوسهم دونه، وقد اجتمعوا فى الله إخوانا، يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب بينهم ويتقاسمونه؟ !

ثم يمضي السياق يقرر أنهم:

﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء .. ولهذه الخصائص هنا موضع .. إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس .. إنما هى العزة للعقيدة .. وإنما هو الاستعلاء للراية التى يقفون تحتها في مواجهة أهل الكتاب ومن على شاكلتهم .. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذى معهم، لاأن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين، وما عند الآخرين !

ثم هي الثقة بغلبة دين الله على ما عداه، وبغلبة قوة الحق على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية !

فهم الأعلون ، حتى وهم ينهزمون فى بعض المعارك، فى أثناء الطريق الطويل، وهم:

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

فالجهاد فى سبيل الله، لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه فى البشر، وتحكيم شريعته فى الحياة، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس.. صفة العصبة المؤمنة، التي تتولى الله ورسوله والمؤمنين، والتى يختارها الله، ليصنع بها فى الحياة ما يريد .. وهم يجاهدون فى سبيل الله .. لا فى سبيل أنفسهم .. فى سبيل الله .. لتحقيق منهج الله، وتقرير سلطانه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق.. وليس لهم فى هذا الأمر شىء، وليس لأنفسهم من هذا حظ، إنما هو لله، وفى سبيل الله، بلا شريك.. وهم لا يخافون لومة لائم..

وفيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس ؟ !

وفيم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجيل، ومتعارف الجاهلية، وهم يتبعون سنة

الله، ويعرضون منهج الله للحياة ؟ !

إنما يخشى لوم الناس ! من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس، ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس ! مثل هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض، المستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم سواء بسواء !

أما من يرجع إلى موازين الحق، ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم.. وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته .. فما يبالى ما يقول الناس وما يفعلون ! كائنا هؤلاء الناس ما كانوا ! وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان ! وكائنة حضارة هؤلاء وثقافتهم ما تكون !

إننا نحسب حسابا لما يقول الناس، ولما يفعل الناس ، ولما يملك الناس، ولما يصطلح عليه الناس، ولما يتخذه الناس فى واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين.. لأننا نغفل أو نسهوا عن الأصل الذى يجب أن نرجع إليه فى الوزن والقياس والتقويم .. إنه منهج الله وشرعه وحكمه .. فهو وحده الحق، وما خالفه فهو باطل، ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون !

إنه ليست قيمة أى وضع، أو أى عرف .. أنه موجود ، وأنه واقع ، وأن ملايين البشر يعتنقونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم ! فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامى .. إنما قيمة أى وضع، وأى عرف، وأى تقليد، أن يكون له أصل فى منهج الله ، الذى منه وحده تستمد القيم والموازين ..

ومن هنا تتولى العصبة المؤمنة المختارة منهج الله.

ومن هنا تتولى هذه العصبة الحق ورسوله والذين آمنوا، وتنفر من الولاء لأهل الكتاب ومن على شاكلتهم، وتجاهد فى سبيل الله، ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المختارين.

ثم إن ذلك الاختيار من الله، وذلك الحب المتبادل بين الله وبين المختارين، وتلك السمات التى يجعلها طابعهم وعنوانهم، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم، والسير على هداه فى جهادهم.. ذلك كله من فضل الله:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يعطى عن سعة .. ويعطى عن علم .. وما أوسع هذا العطاء الذى يختاره الله لمن

يشاء، عن علم وعن تقدير ..

اللهم ! أعطنا ولا تحرمنا .. اللهم ! آمين.

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان، ويبين لهم من يتولون:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها .. وأنها هى الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، وبعد التحذير من الولاء لأهل الكتاب واعتباره خروجا من الصف المسلم إلى صف أهل الكتاب ومن على شاكلتهم، وارتدادا عن الدي٨٢

وهكذا نبصر أن القرآن الكريم سلك في النداء الأول طريق النهى المباشر، وطريق التخويف من أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده، فينكشف ستر المنافقين..

وسلك في النداء الثانى طريق التحذير من الردة بموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين، وطريق التحبيب فى أن يكونوا من العصبة المختارة، ممن يحبهم الله ويحبونه، وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..

وسلك في النداء الثالث إثارة الحمية فى نفوسهم لدينهم ولعبادتهم، وسوى فى النهى عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ..

## قصة قارون:

ولايفوتنا أن نقف مع قصة قارون الذي كان من قوم موسى .. تلك القصة التى تعرض سلطان المال، وكيف ينتهي بالبوار مع البغى والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق، وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح، مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة، دون علو فى الأرض ولا فساد(١) .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها، إنما يكتفى بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم. فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى فى مصر قبل الخروج؟ أم

(١) في ظلال القرآن : ٥ : ٢٧١ وما بعدها بتصرف.

وقعت بعد الخروج في حياة موسى ؟ أم وقعت فى بنى إسرائيل من بعد موسى ؟

أورد ابن جرير وابن كثير وغيرهما أقوالا في ذلك .. [1] والقصة كما وردت في القرآن الكريم كافية لأداء الغرض منها، ولتقرير القواعد التى جاءت لتقريرها. ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد فى دلالتها شيئا ما ترك تحديدها..

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [2]

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم «قارون» وتحدد قومه « من قوم موسى » وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغى «فبغى عليهم » وتشير إلى سبب هذا البغى، وهو الثراء :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾

---

(١) انظر : تفسير الطبري : ٢٠ : ١٠٥ وما بعدها ، وتفسير ابن كثير : ٣ : ٣٩٨ وما بعدها ، وتفسير القرطبي : ١٣ : ٣١٠ وما بعدها .

(٢) القصص : ٧٦ ـ ٨٢ .

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس..

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالا كثيرا، يصور القرآن كثرته بأنه كنوز.. وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال.. من أجل هذا بغى قارون على قومه.. ولا يذكر فيم كان البغي، ليدعه يشمل شتى الصور. فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم ــ كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان ــ وذلك كما قال يحيى بن سلام وابن المسيب: كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم، وكان منهم. (1) وربما بغى عليهم فتجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم، كما قال ابن جرير، (2) وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب..

وعلى أية حال فقد وجد قارون من قومه من يحاول رده عن هذا البغي، ورجعه إلى النهج القويم، الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم، ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال، وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة..

قال ابن جرير: (3) إذ قال قومه: لا تبغ ولا تبطر فرحا، إن الله لا يحب من خلقه الأشرين البطريين.

«لا تفرح» فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ!

«لا تفرح» فرح البطر الذي ينسى المنعم بالمال، وينسى نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران!

---

(1) تفسير القرطبي: ١٣ : ٣١٠. (2) تفسير الطبري: ٢٠ : ١٠٦. (3) المرجع السابق: ١١١.

« لا تفرح » فرح الذى يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد. وهو خلق يهود ! ومن على شاكلتهم!

« إن الله لا يحب الفرحين » .. فهم يردونه بذلك إلى الله، الذى لا يحب الفرحين ذين بالمال، المتباهين به، المتطاولين بسلطانه على الناس !

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾

وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم .. المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة .. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة .. بل يحرضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها !

لقد خلق الله عز وجل طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هى الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التى لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

وقال ابن جرير: (١) يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل قوم قارون له: لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك، والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا. وقوله: « ولا تنس نصيبك من الدنيا » يقول: ولا تترك نصيبك وحظك من الدنيا أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غدا من عقاب الله.

﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾

فهذا المال هبة من الله وإحسان. فليقابل بالإحسان فيه .. إحسان التقبل، وإحسان التصرف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران.

(١) المرجع السابق : ١١٢.

﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

الفساد بالبغي والظلم .. والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة .. والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء .. والفساد بإنفاق المال فى غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

كما أنه لا يحب الفرحين.

كذلك قال له قومه: فكان رده جملة واحدة، تحمل شتى معانى الفساد والإفساد، والطبيعة اليهودية:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لى جمعه وتحصيله. فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون في ملكيتى الخاصة، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذى ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء ! وهو خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

وهو نموذج مكرر في البشرية، مثله مثل قارون ! فكم من الناس يظن أن علمه وكده وحدهما سبب غناه ! ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وعما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله عز وجل حسابا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه ! وهوخلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقرر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها،ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه. ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية ـ كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف، ولا فى إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به ... وهو منهج خاص، واضح الملامح، متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم.. وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم !

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردا على قولته الفاجرة المغرورة:

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾

فإذا كان ذا قوة وذا مال، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا! وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي فليعلم، وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله، حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد !

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد قصة قارون، يتجلى فيه البغي والتطاول، والإعراض عن النصح، والتعالي عن العظة، والإصرار على الفساد، والاغترار بالمال، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران !

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزينته على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم، وتتهاوى لها نفوسهم، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون، ويحسون أنه أوتى حظا عظيما يتشهاه المحرمون .. ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين في ثقة وفي يقين:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان، والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله. والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وفى كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة

الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه .. ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوي، كما يتهافت الذباب ويتهاوي ! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها ! وهو خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع.. وهم أعلى نفسا، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا.. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم « الذين أوتوا العلم » العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾

يقول ابن جرير: [1] يقول تعالى ذكره: وقال الذين أوتوا العلم بالله، حين رأوا قارون خارجا عليهم في زينته، للذين قالوا: ياليت لنا مثل ما أوتي قارون: ويلكم اتقوا الله وأطيعوه، فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله، وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال فى الآخرة، خير مما أوتى قارون من زينته وماله..

ثواب الله خير من هذه الزينة،وماعند الله خير مما عند قارون.. والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون .. الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم.. الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها.. الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون.. وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة .. درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض، والتطلع إلى ثواب الله فى رضى وثقة واطمئنان..

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيما..

ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

(١) المرجع السابق : ١١٦.

﴿ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾

يقول ابن كثير: [١] لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه، وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم بن عبد الله أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال:

**«بينا رجل يجر إزاره إذ خُسِف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »** .[٢]

وفي رواية له عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ:

**«بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ تُعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة »** [٣].

ورواه مسلم عنه بلفظ:

**« بينما رجل يمشي، قد أعجبته جُمَّتُهُ وبُرْدَاه ، إذْ خُسِف به الأرضُ، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة».**

وفي رواية:

**« بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»** [٤] .

وقد ذكر ها هنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا، كما قال ابن كثير.. وحسبنا أن الحق تبارك وتعالى قال:

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة، فابتلعته الأرض وابتلعت داره، وهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا.. وذهب ضعيفا عاجزا، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال !

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، وردتهم الضربة القاضية إلى الله، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال ! وكان هذا المشهد الأخير:

(١) تفسير ابن كثير : ٣ : ٤٠٠ بتصرف .
(٢) البخاري : ٧٧ ـ اللباس (٥٧٩٠).
(٣) المرجع السابق: (٥٧٨٩).
(٤) مسلم: ٣٧ ـ اللباس ٤٩ ، ٥٠ (٢٠٨٨).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون.. وهم يرون المصير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة .. وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله. فهو جل شأنه يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب. ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد.. إنما هو الابتلاء الذى قد يعقبه الابتلاء.. وعلموا أن الكافرين لا يفلحون. وقارون لم يجهر بكلمة الكفر، ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين، ويرون فى نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين !

تلك هي قصة « قارون » وهى صورة مصغرة لبنى إسرائيل[1] وعنوان لكتابهم الأسود المشئوم فى هذه الحياة.. من رأى ظاهرهم حسدهم، وتمنى أن ينال مثل ما نالوا، ومن نظر إلى ما وراء هذا الظاهر فر منهم فرار السليم من المجذوم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[2]

فمن نظر إلى قارون، وهو يرى هذا الثراء العريض الذى كان يعيش فيه، وهذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة التي ضمت عليها خزائنه، وشهد موكبه وما يحف به من جند وأتباع، قال مثل هذا القول الذى كان يردده في سره وجهره كل من رآه من قومه من أهل الغفلة والجهالة:

﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وأما من رآه من أهل العلم وأصحاب البصائر النافذة ــ كما أسلفنا ــ ورأى غروره وعجبه، واشتغاله بماله، واغتراره به، وكفرانه بنعمة ربه،أشاح بوجهه عنه، وحمد الله الذي عافاه من هذا البلاء الذي ينتظر قارون في الدنيا والآخرة جميعا،وقال مع القائلين:

﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾

ثم لم تلبث الأيام أن طلعت على الفريقين ــ كما أسلفنا ــ وقد أخذ الله قارون أخذ عزيز مقتدر ..

---

(١) اليهود في القرآن: ٣٣ بتصرف.　　(٢) هود: ١٠٢.

وإذا الذين كانوا يحسدون قارون، ويتمنون أن يلحقوا بركابه في الجاه والثراء .. يحمدون الله الذي لم يستجب لما تمنوه من قبل..

وهكذا بنو إسرائيل، وما ألبسهم الله تعالى من نعم، لم يرعوها، ولم يحمدوا الله عليها، بل زادتهم تلك النعم طغيانا وكفرا، فرماهم الله تعالى بغضبه ولعنته،وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ومسخ طبيعتهم، وخرج بهم من عالم الإنسانية إلى عالم القردة والخنازير..

## سخط الله عليهم ولعنه إياهم :

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى في كثير من الآيات القرآنية أن بني إسرائيل استحقوا لعنته وغضبه، [1] بسبب كفرهم، وارتكابهم للمعاصي، وسكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من السيآت التي تؤدي بصاحبها إلى الخزي والخسار في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [2]

في هذه الآيات بيان موقف أنبياء بني إسرائيل من كفار بني إسرائيل [3] على مدى التاريخ، ممثلا فى موقف داود وموقف عيسى عليهما السلام.. وكلاهما لعن كفار بنى إسرائيل، واستجاب الله له. بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعى، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه، وبسبب توليهم الكافرين، فباءوا بالسخط واللعنة، وكتب عليهم الخلود فى العذاب..

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق .. وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ٢ : ٤١١ .
(٢) المائدة : ٧٨ ـ ٨١ .
(٣) في ظلال القرآن : ٢ : ٩٤٧ بتصرف.

الله، فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة علي بني إسرائيل.

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة، وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله - كما سبق - وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرن كل رسول ويعزرونه ويتبعونه:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١)

وهنا نبصر مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه، وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها بما هم عليه..(٢) ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء.. ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان.. ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة..

وحينما كلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على شيء من الدين والعقيدة والإيمان.. بل ليسوا على شيء أصلا يرتكن عليه !

حينما كلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بمواجهتهم هذه المواجهة الفاصلة، كانوا يتلون كتابهم، وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية، وكانوا يقولون: إنهم مؤمنون.. ولكن هذا التبليغ الذي كلف الحق تبارك وتعالى خاتم رسله أن يواجههم به، لم يعترف لهم بشيء أصلا مما كانوا يزعمون لأنفسهم ؛ لأن «الدين» ليس كلمات تقال باللسان، ليس لها فى الجنان مكان، وليس كتبا تقرأ أو ترتل، وليس صفة تورث وتدعى .. إنما الدين منهج حياة .. منهج حياة يشمل العقيدة المستسرة في الضمير، والعبادة الممثلة فى الشعائر، والتي تتمثل فى إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج.. ولما لم يكن أهل الكتاب يقيمون «الدين» على قواعده هذه، فقد كلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على دين ، وليسوا على شيء أصلا من هذا القبيل !

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، مقتضاها الأول الدخول في الدين القيم الذى أرسل الله به خاتم النبيين محمدا ﷺ، فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا

(١) المائدة : ٦٨ .

(٢) المرجع السابق: ٩٣٨ بتصرف .

بكل رسول ويعزروه وينصروه، وصفة محمد وقومه ـ كما سبق ـ عندهم فى التوراة وعندهم فى الإنجيل، كما أخبر الله وهو أصدق القائلين، فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، إلا أن يدخلوا في هذا الدين القيم، الذي يصدق ما لم يدخله تحريف مما بين أيديهم ويهيمن عليه.. فهم ليسوا على شيء ـ بشهادة الله سبحانه ـ حتى يؤمنوا بخاتم النبيين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .. الذي كلف أن يواجههم بهذا الحكم الإلهى فى شأنهم، وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم !

والله عز وجل يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة، وبهذه الكلمة الفاصلة، ستؤدي إلى أن تزيد كثيرا منهم طغيانا وكفرا، وعنادا ولجاجا... ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يواجههم بها، وألا يأسى على مايصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود، بسبب مواجهتهم بها، لأن حكمته سبحانه تقتضى أن يصدع بكلمة الحق، وأن تترتب عليها آثارها في نفوس الخلق. فيهتدى من يهتدى عن بينة، ويضل من يضل عن بينة، ويهلك من يهلك عن بينة، ويحيا من حيى عن بينة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهنا نبصر منهج الدعوة، وحكمة الله في هذا المنهج، وأن هؤلاء إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغيانا وكفرا، يستحقون هذا المصير البائس، لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق، ولا خير في أعمالها ولا صدق. فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق، ليظهر ما كمن فيها وما بطن، ولتجهر بالطغيان والكفر، ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين !

وعلى ضوء هذا التبليغ.. وعلى ضوء نتائجه التى قدر الله أن تكون في زيادة الكثيرين منهم طغيانا وكفرا.. نجد أن الحق تبارك وتعالى يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.. وحتى يدخلوا في هذا الدين القيم تبعا لهذه الإقامة، كما هو بديهي من دعوتهم إلى الإيمان بالله والنبى، في كثير من الآيات ـ كما سبق ـ فهم إذن لم يعودوا على «دين الله» ولم يعودوا أهل «دين» يقبله الله.

ونجد أن مواجهتهم بهذه الحقيقة قد علم الله أنها ستزيد الكثيرين منهم طغيانا وكفرا.. ومع هذا فقد أمر الله خاتم رسله أن يواجههم بها دون مواربة، ودون أسى على ما سيصيب الكثيرين منها !

فإذا نحن اعتبرنا قول الله في هذه القضية هو القول الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يبق هنالك موضع لاعتبار أهل الكتاب أهل دين .. يستطيع «المسلم» أن يتناصر معهم فيه للوقوف فى وجه الإلحاد والملحدين، كما ينادي بعض المخدوعين وبعض الخادعين ! فأهل الكتاب ليسوا على شيء .. وليس للمسلم أن يقرر غير ما قرره الله:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (١)

وقول الله باق لا تغيره الظروف والملابسات !

وإذا نحن اعتبرنا قول الله هو القول الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يكن لنا أن نحسب حسابا لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة، في هياجهم علينا، وفي اشتداد حربهم لنا، ولم يكن لنا أن نحاول كسب مودتهم بالاعتراف لهم بأنهم على «دين» نرضاه منهم، ونقرهم عليه، ونتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عنه .. كما ندفع الإلحاد عن الدين القيم الذى هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس ..

إن الله عز وجل لا يوجهنا هذا التوجيه . ولا يقبل منا هذا الاعتراف. ولا يغفر لنا هذا التناصر، ولا التصور الذي ينبعث منه. لأننا حينئذ نقرر لأنفسنا غير ما يقرر، ونختار في أمرنا غير ما يختار، ونعترف بعقائد محرفة ـ كما سبق ـ أنها «دين» .. يجتمع معنا في آصرة الدين القيم.. والله عز وجل يقول: إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وهم لا يفعلون !

إن دين الله ليس راية ولا شعارا ولا وراثة !

إن دين الله حقيقة تتمثل فى الضمير وفى الحياة سواء.. تتمثل فى عقيدة تعمر القلب، وشعائر تقام للتعبد، ونظام يصرف الحياة..

ولا يقوم دين الله إلا فى هذا الكل المتكامل ..

وإن التلطف في دعوة أهل الكتاب ومن على شاكلتهم إلى هذا الدين، ينبغى أن يكون فى الأسلوب لا فى الحقيقة التى يبلغهم إياها. فالحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة. أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة..

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

ولقد ينظر بعضنا اليوم ـ مثلا ـ فيرى أن أهل الكتاب هم أصحاب الكثرة العددية، وأصحاب القوة المادية. وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين فى الأرض، وهم أصحاب كلمة مسموعة، فى الشئون الدولية. وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة، وأصحاب قوة مدمرة. وينظر فيرى المسلمين هكذا كما نرى ونشاهد فى عالمنا المعاصر.. فيتعاظمه الأمر، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة، ويرى عدم الجدوى فى أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شىء ! وأن يبين لهم «الدين» الحق !

وليس هذا هو الطريق.. إن الجاهلية هى الجاهلية .. وإن واقع أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ليس بشىء ما لم يقم على « الدين » الحق:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

فهى المعصية والاعتداء، يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء. وقد حفل تاريخ بنى إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ بالمعصية والاعتداء!

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية فى مجتمع بنى إسرائيل. ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها، وأن يسكت عنها المجتمع، ولا يقابلها بالتناهى والنكير:

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

إن العصيان والعدوان قد يقعان فى كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين. فالأرض لا تخلو من الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه، وأن يصبحا ـ كذلك ـ واقعا سهلا يجترىء عليه كل من يهم به .. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه، وتوقع العقوبة الرادعة عليه.. عندئذ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه.. وعندئذ يتماسك المجتمع ، فلا تنحل عراه.. وعندئذ ينحصر الفساد فى أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة .. وعندئذ لا تشيع الفاحشة، ولاتصبح هى الطابع العام، الذى هو سمة من سمات يهود ! ومن على شاكلتهم !

والمنهج الإسلامى ـ بعرضه لهذه الظاهرة فى المجتمع الإسرائيلى ـ فى صورة

الكراهية والتنديد، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حيّ متجمع صلب، يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية، قبل أن تصبح ظاهرة عامة، ويريد للمجتمع الإسلامى أن يكون صلبا فى الحق، وحساسا تجاه الاعتداء عليه، ويريد للقائمين عليه أن يؤدوا أمانتهم التى استحفظوا عليها، فيقفوا فى وجه الشر والفساد والطغيان .. ولا يخافوا لومة لائم .. سواء جاء هذا الشر من المتسلطين بأى سبب كان، أو الجماهير المتسلطة بالهوى. فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه سواء!

والإسلام يشدد فى الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر، إذا هى سكتت عليه، ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة..

يروى مسلم وغيره عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال: « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** » (١) .

ذلك أن الشريعة وضعت ثلاث وسائل لمقاومة الشر والفساد فى المجتمع، وهي إما مقاومته وتنحيته باليد، أو باللسان أو بالقلب .. وهى على الترتيب فى الوجوب، والسبب – كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز – (٢) ما لدينا من الاستطاعة والتمكن..

فأعلاها مرتبة التغيير العملي لمن توافرت لديه وسائل النفوذ والسلطان، وهذه هى مهمة رجال الدولة، وفى مقدمتهم رجال الأمن الذين هم سمع الدولة الذي تسمع به، وبصرها الذى تبصر به، ويدها التى تبطش بها.. الإسلام يرفعها إلى أعلى درجات المسئولية الاجتماعية..

يلى هذه الرتبة رتبة التغيير باللسان، وهذه هى مهمة الدعاة والمرشدين، الذين يملكون أدوات التعليم والبيان، ولم يوكل إليهم شىء من الضبط والسلطة العملية..

وآخر الوسائل وأدناها التغيير بالقلب، وهذه هى مهمة العامة والجمهور، وهى التى

---

(١) مسلم: ١ – الإيمان ٧٨ (٤٩) وأبو داود (١١٤٠) والترمذي (٢١٧٣) والنسائى : ٨ : ١١١ وابن ماجه (٤٠١٣) وأحمد : ٣ : ١٠ ، ٢٠ ، ٤٩ .

(٢) دراسات إسلامية: ٦١ وما بعدها بتصرف، وانظر: المسئولية الاجتماعية في الإسلام : ٢٥٠ وما بعدها .

قال فيها النبي ﷺ :

« **أضعف الإيمان** » .

ولابد لنا من التنبيه إلى خطأ شائع ذائع فى فهم معنى التغيير بالقلب، فإن كثيرين من الناس يظنون أن التغيير بالقلب هو أن تكره الشر فيما بينك وبين نفسك، ولا ترضى عنه بقلبك، دون أن يبدو عليك أدنى أثر للكراهية وعدم الرضى !

والواقع أن هذا الفهم تحريف لمعانى الكلمات فى اللغة العربية ! وتحريف لمقاصد الشريعة الإسلامية !

أما أنه تحريف لمعني الكلمة فى اللغة العربية، فلأن الإنكار بالقلب المجرد عن كل مظهر إيحابي أو سلبى لهذا الإنكار لا يسمى تغييرا للمنكر، بل يسمى إقرارا سكوتيا للمنكر، وتشجيعا عليه !

وأما أنه تحريف لمقاصد الشريعة، فلأن إبطال الكراهية للمنكر، مع بقاء المعاملة لصاحبه على وجه البشاشة والمجاملة العادية، ومع المحافظة على تحيته وتكريمه، كما يكرم المحسنون، هذا هو صريح النفاق، مع أن الحديث النبوى يجعل تغيير المنكر بالقلب مرتبة من مراتب الإيمان، وإن كانت ضعيفة، ويأمرنا بها عند عدم استطاعة غيرها. فكيف أن الشارع الحكيم يأمرنا بهذا النفاق؟ !

والحق أن المقصود من التغيير بالقلب ، الذى هو أضعف درجات الإيمان ، هو ما نسميه بالمقاومة السلبية ، عند العجز عن التغيير بالوسائل الإيجابية باليد أو اللسان..

هذه المقاومة السلبية ليس معناها الشتم أو الإهانة أو استعمال العنف الذى يحظره الأدب أو القانون، ولكنها موقف متحفظ ، يشعر فيه المسيء والمجرم بأنه كمية مهملة، وأنه محروم من التكريم والتعظيم الذي كان قد تعوده، يشعره باستياء الآخرين من سلوكه!

ويشعره أخيرا بأنه فى وحشة وعزلة ، بسبب هجران الآخرين له، ومقاطعتهم إياه !

ثم هو موقف نشعر فيه نحن بأننا بدلنا موقفنا المائع الفاتر المتراخي!

موقف المجاملة الكاذبة لكل أحد، ولو على حساب الحق والفضيلة !

واتخذنا موقفا آخر من الجد والغيرة، والشعور بمسئوليتنا ومسئولية كل منا عن الحقوق والآداب العامة !

هذا الموقف لا يتطلب منا أكثر من العزم والتصميم، والشجاعة الأدبية فى سبيل كرامة أمتنا، وكرامة أنفسنا !

لن يكلفنا شيئا، لا من المجهود البدني، ولا من المجهود المالي ، بل هو راحة بدن، وراحة ضمير، وتخلص من تكاليف المدنية السطحية في القيام للبر والفاجر، والابتسام فى وجه الصالح والطالح، والتعاون مع المحسن والمسيء !

على أنه لا يكفى أن يقوم بهذه المهمة فرد أو بضعة أفراد !

بل لابد من التعاون فى كل بيئة، وفى كل حى، وفى كل قرية، على مجانبة المفسدين ومقاطعتهم!

هذا هو العلاج الناجح الحاسم..

فإذا لم نقف هذا الموقف الحر الصريح ، وتركنا الأمور تسير على هذا التهاون الذى نحن عليه الآن، فكلنا آثمون !

ومن ثم كانت اللعنة على بنى إسرائيل ! ومن على شاكلتهم !

ومن ثم صرح فى الحديث بأنه ليس وراء هذه المرتبة مثقال حبة خردل من إيمان، فيما يرويه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

**«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب. يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره،ثم إنها تخلّف من بعدهم خُلوف. يقولون ما لا يفعلون . ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن. ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»** . (١)

قال النووى: وأما الحواريون المذكورون فاختلف فيهم، فقال الأزهرى وغيره:

هم خلصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان الذين نقوا من كل عيب..

وقال غيره: أنصارهم .

وقيل: المجاهدون .

وقيل: الذين يصلحون للخلافة بعدهم .(٢)

---

(١) مسلم: ١ ــ الإيمان ٨٠ (٥٠).

(٢) مسلم بشرح النووي : ٢ : ٢٨ .

ويروى الطبرانى بسند رجاله ثقات، عن عُرس بن عميرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

**« إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولا تغيره، فذلك حين يأذن الله فى هلاك العامة والخاصة ».**

وفى رواية له بسند رجاله رجال الصحيح عن أبي موسي، عن النبي ﷺ قال:

**«إن من كان قبلكم من بني إسرائيل، إذا عمل فيهم العامل الخطيئة، فنهاه الناهى تعذيرا، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذى نفسي بيده ! لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على أيدى المسيء، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ويلعنكم كما لعنهم »** [١] .

ويروى أبو داود بسند حسن عن عُرس بن عميرة، أن النبى ﷺ قال:

**« إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة: أنكرها ـ كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »** [٢].

وتتوارد النصوص تترى فى هذا المعنى ؛ لأن هذا التماسك فى كيان الجماعة، بحيث لا يقول أحد فيها ـ وهو يرى المنكر يقع من غيره ـ: وأنا مالى؟ ! [٣] وهذه الحمية ضد الفساد فى المجتمع، بحيث لا يقول أحد ـ وهو يرى الفساد يسرى ويشيع ـ وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بى الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة.. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذى لا قيام لها إلا به..

وهذا كله فى حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله، ومعرفة تكاليف هذا الإيمان.. وإلى

---

(١) مجمع الزوائد ٧ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ورواه أبو داود (٤٣١٤) عون المعبود، ومعني ( ولتأطرنه على الحق أطرا ) كما قال الخطابي : أي لتردنه على الحق، وأصل الأطر: العطف والتثني. وقال في النهاية : تأطروه على الحق أطرا: تعطفوه عليه. وانظر : الترمذي ( ٣٠٥١) وابن ماجه ( ٤٠٠٦) والطبري : ١٠ : ٤٩١ ، (١٢٣٠٩، ١٢٣١١) تحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

(٢) عون المعبود (٤٣٢٣) .

(٣) في ظلال القرآن : ٢ : ٩٤٩ بتصرف.

الإدراك الصحيح لمنهج الله، ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة.. وإلى الجد فى أخذ العقيدة بقوة، والجهد لإقامة المنهج الذى ينبثق منها فى حياة المجتمع كله .. فالمجتمع المسلم الذى يستمد قانونه من شريعة الله، ويقيم حياته كلها على منهجه، هو المجتمع الذى يوجه المسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا فى الخضم، أو يجعله غير ممكن أصلا فى كثير من الأحيان ! كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم فى أرجاء الأرض، والتى تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد فى شأن أحد، وتعتبر الفسق والفجور والمعصية « مسائل شخصية » ! ليس لأحد أن يتدخل فى شأنها ! وذلك خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه، ويعقد الألسنة، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان !

إن الجهد الأصيل، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذى يقوم على منهج الله .. قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية، شخصية وفردية..

على أنه إلام نحاكم الناس فى أمر ما يرتكبونه من منكرات؟ بأى ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه؟ أنت تقول: إن هذا منكر، فيطلع عليك عشرات من هنا ومن هناك يقولون لك: كلا ! ليس هذا منكرا ! لقد كان منكرا فى الزمان الخالى وليس فى الزمان الحالى ! والدنيا «تتطور» ! والمجتمع « يتقدم » ! وتختلف الاعتبارات ! وذلك خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

فلابد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولابد من قيم معترف بها ، نقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتى بهذا الميزان؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم، وهى متقلبة لا تثبت على حال؟!

إننا ننتهى إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه !

فلابد ابتداء من إقامة الميزان .. ولابد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء..

هذا الميزان الثابت هو ميزان الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

ثم يمضى السياق يصف حال بنى إسرائيل علي عهد خاتم النبيين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين، وهى حالهم في كل زمان وفى كل مكان، فهم ـ كما سبق ـ يتولون الذين كفروا، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة !

وعلة ذلك ـ مع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبى ، وأنهم لم يدخلوا فى الدين القيم .. ومن ثم فهم غير مؤمنين .. ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود على عهد رسول الله ﷺ ينطبق على حالهم اليوم وغدا، وفى كل حين ! كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب فى معظم أرجاء الأرض اليوم ! مما يدعو إلى التدبر العميق فى أسرار هذا القرآن، وفى عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة فى كل آن..

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين، ويؤلبونهم على المسلمين:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[1]

وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك، إلى اللحظة الحاضرة !

وما قامت الصهيونية في أرض فلسطين أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين !

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو يتعاون مع الفريق الأول منهم تعاونا وثيقا،

---

(١) النساء : ٥١.

كما نرى ونشاهد ، كما يتعاون مع المادية والإلحاد ، كلما كان الأمر أمر المسلمين !

وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين !

حقا، إنها الإحنة التى لا تهدأ على هذا الدين القيم، ومن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مدعين !

وصدق الله العظيم:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾

فهذه هى الحصيلة التى قدمتها لهم أنفسهم !

إنها سخط الله عليهم ! وخلودهم فى النار ! فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم ! ويالها من ثمرة مرة ! ثمرة توليهم الكافرين !

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله : في الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين، وأعدائه الذين يتولون الكافرين !

وما الدافع ؟ ما دافع اليهود ومن على شاكلتهم لتولى الذين كفروا ؟

إنه عدم الإيمان بالله والنبى :

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

هذه هى العلة ..

إنهم لم يؤمنوا بالله والنبى ..

إن أكثرهم فاسقون ..

إنهم يتجانسون إذن مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة، فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين ..

وتبرز لنا من ذلك ثلاث حقائق :

**الحقيقة الأولى** : أن أهل الكتاب جميعا ـ إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ ـ غير مؤمنين بالله. لأنهم لم يؤمنوا بخاتم النبيين !

ولم ينف القرآن الكريم عنهم الإيمان بالنبى وحده . بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك:

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾

وهوتقرير من الحق لا يقبل التأويل. مهما تكن دعواهم فى الإيمان بالله .. وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإيمانية كما سلف ..

**والحقيقة الثانية** : أن أهل الكتاب جميعا مدعوون إلى الدخول فى الدين القيم، على لسان خاتم النبيين ﷺ .. فإن استجابوا فقد آمنوا، وأصبحوا على دين الله .. وإن تولوا فهم كما وصفهم الله ..

**والحقيقة الثالثة:** أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين، فى شأن من الشئون.. لأن كل شأن من شئون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين القيم ..

ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك، وبحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم فى دار الإسلام، ويتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة ما تكون ، وإلى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ، ومجادلتهم بالحسنى كذلك.. والوفاء لهم ما وفوا بعهدهم ومسالمتهم للمسلمين .. وهم فى أية حال لا يكرهون على شىء فى أمر هذا الدين القيم ..

هذا هو الإسلام .. في وضوحه ونصاعته .. وفى بره وسماحته .

# الفصل الثالث

## غزوة بني قينقاع

اليهود يتوعدون الرسول ﷺ ـ أول من نقض العهد من اليهود ـ تكشف الوجه اليهودي ـ إجلاؤهم ـ أخلاقنا وأخلاقهم ـ تعجلوا الشر فباءوا به ـ حقيقة القضية ـ عصابات من المرتزقة ـ وقع إجلائهم ـ قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود ـ بداية الخوف ـ عهد وميثاق ـ النبى لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها ـ الوحدة السياسية في المدينة.



## اليهود يتوعدون الرسول ﷺ:

وحين لم تجد تلك الحرب النفسية الشنيعة الغليظة التي أعلنها اليهود على الرسالة والرسول ﷺ لم يحتملوا السكوت على ما هم فيه من غيظ وحقد ـ كما عرفنا ـ فأعلنوها حربا سافرة، مغلفة بالختل والمراوغة، حتى إذا أخزاهم الحق، وأبطل كيدهم، حاولوا أن يتنصلوا مما جنته أيديهم، وأن يجدوا في مجال النفاق ـ وهم أساتذته ـ عذرا يعتذرون به!

وهكذا سعى اليهود إلى حتفهم ببغيهم!

وكان أول صدام بين المسلمين واليهود ـ كما سيأتي ـ هو ذلك الذي حدث في أعقاب بدر، حيث بدأوا يروجون الشائعات ضد المسلمين، ويشنون حربا نفسية متواصلة ضد الرسالة والرسول، بل توعدوا الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حين ذكرهم بما أصاب المشركين يوم بدر، فيما رواه ابن إسحاق وغيره بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (١) لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر، جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال:

**« يا يهود: أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا يوم بدر »**

فقالوا: إنهم كانوا لا يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال، فأنزل الله تعالى:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٢)

وفي رواية لأبي داود: (٣) قالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا..

---

(١) فتح الباري: ٧ : ٣٣٢ وانظر: البداية والنهاية: ٤ : ٣ ـ ٤ والسيرة النبوية لابن كثير ٣ : ٥ ـ ٦ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، والروض الأنف ٢ : ٢٧٤ والمواهب اللدنية: ١ : ٤٥٧ والسيرة النبوية لابن هشام: ٢ : ١٧ والطبقات الكبرى: ٢ : ٢٨ وعيون الأثر: ١ : ٢٩٤ ومختصر سيرة الرسول ﷺ : ٢٣٩.

(٢) آل عمران: ١٣.

(٣) عون المعبود (٢٩٨٥).

(٤) تفسير الطبرى: ٣ : ١٩٢.

وفي رواية لابن جرير: [٤] يا محمد، لا تغرنك نفسك، أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا..

هكذا ظهر موقف اليهود على حقيقته !

وإذا كان الصراع المرير بين الإسلام وبين الوثنية بقيادة قريش: حروب عصابات، وحصارا اقتصاديا أول الأمر، ومجابهة عسكرية نظامية حاسمة بعد ذلك .. فإن موقف اليهود بدأ يتضح بعد الانتصار الذي حققه المسلمون في بدر، وإن بقاءهم ساكتين إزاء ما يجري من صراع سيمكن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من تصفية أعدائه، وتعزيز مركز الدولة الإسلامية في الجزيرة، وسيجد اليهود أنفسهم آنذاك [١] منفردين بمواجهة الإسلام، مرغمين على قبول سلطته السياسية بشكل نهائي، وهذا ما لا يمكن أن يتصوروه؛ لأنه يمثل خطرا على مصالحهم وانغلاقهم وتفردهم التاريخي الطويل بالسلطان !

ومن ثم بدأوا يتحركون ـ فوق ما سبق ـ باتجاهات شتى ـ كما سيأتي ـ لعرقلة الحركة الإسلامية، ووضع المصاعب في طريقها، وسحقها في النهاية ـ إن استطاعوا ـ ضاربين عرض الحائط بكل التزاماتهم وعهودهم ومواثيقهم، ولم يدع اليهود في تحركاتهم المضادة تلك أسلوبا إلا اتبعوه:

تصعيدا للحرب النفسية !

مطاردات جدلية !

فتنا اجتماعية !

اغتيالا فرديا !

تحركا عسكريا !

خيانة في الأوقات الحرجة !

تأليبا للقوى المعادية للإسلام، وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة !

ولم يتحركوا مجتمعين. .. الأمر الذى جعل التصدى موجها إلى كل قبيلة على حدة

---

(١) دراسة فى السيرة : ٣٣٣ بتصرف.

وفق جرمها ـ كما سنعرف ـ وربما فكر اليهود فى التحرك الجماعى المشترك ـ بادئ ذي بدء ـ لولا خوفهم العاقبة ، حيث سيؤدى ذلك حتما إلى كشفهم .. وهم لم يعتادوا العمل المكشوف، ومن ثم آثروا الأسلوب الآخر ، وهو أن تختار كل قبيلة منهم الفرصة المناسبة لضرب الإسلام وإضعاف دولته !

## أول من نقض العهد من اليهود:

قال الحافظ ابن حجر (١) : كان الكفار بعد الهجرة مع النبى ﷺ على ثلاثة أقسام:

قسم وادعهم على ألا يحاربوه، ولا يمالئوا عليه عدوه ، وهم طوائف اليهود الثلاثة : قريظة ، والنضير ، وقينقاع .

وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة، كقريش.

وقسم تاركوه، وانتظروا ما يؤول إليه أمره ، كطوائف من العرب، فمنهم من كان يحب ظهوره فى الباطن، كخزاعة ، وبالعكس كبني بكر، ومنهم من كان معه ظاهرا، ومع عدوه باطنا، وهم المنافقون.

فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر فنزلوا على حكمه.

وفي الصحيح عن ابن عمرو: هم رهط عبد الله بن سلام (٢) .

## تكشف الوجه اليهودي:

وتكشف الوجه اليهودى الانحلالى على حقيقته في هذه المعركة، قال ابن هشام : ذكر عبد الله بن جعفر [بن عبد الرحمن ] بن المسور بن مخرمة، عن أبى عون، قال:

كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ هناك منهم، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها،فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.

---

(١) فتح الباري : ٧ : ٣٣٠ ، وانظر : زاد المعاد : ٣ : ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢) انظر: المواهب اللدنية: ١ : ٤٥٦ .

## إجلاؤهم:

فسار إليهم النبى ﷺ بعد أن استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر ، فحاصرهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب ، وكان أبيض ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ (١).

وكان إجلاؤهم بمستوى الجرم الذى اقترفوه.

## أخلاقنا وأخلاقهم :

ولا نترك هذا الموقف حتى نذكر أن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف عفيف شريف (٢). لاتهاج فيه الشهوات فى كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين. فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفئ ولا يرتوى!

والنظرة الخائنة، وما يتبعها غالبا من الحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العارى.. كلها لا تصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار المجنون! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة!

فإما الإفضاء الفوضوى الذى لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية، والعقد النفسية، الناشئة من الكبح بعد الإثارة!

وهى تكاد أن تكون عملية تعذيب!

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف عفيف شريف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليما، وبقوته الطبيعية، دون استثارة مصطنعة، وتصريفه فى موضعه المأمون النظيف العفيف الشريف.

ولقد شاع وذاع فى وقت من الأوقات أن النظرة المباحة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة.. شاع وذاع أن كل هذا تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضبط الجنسى، وما وراءه من اندفاع غير مأمون!

شاع وذاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من

---

(١) البداية والنهاية : ٤:٣ ـ ٤ والمواهب اللدنية : ١: ٤٥٧. وعيون الأثر: ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) فى ظلال القرآن: ٤: ٢٥١١ بتصرف.

خصائصه التى تفرقه من الحيوان، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية اليهودية الغارقة فى الوحل والطين!

وهذا ما يحمل وزره فى المقدمة هؤلاء اليهود، وبخاصة فرويد ونظريته الحيوانية!

وهذا هو ما قام به يهود بنى قينقاع ـ كما عرفنا ـ ويقوم به اليهود الآن فى المجتمعات المعاصرة، من دعوة إلى الإباحية الحيوانية!

ولسنا هنا فى مجال بيان الدليل على تحريم ذلك، فحسبنا أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١]

لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامى، وطهر إحساسه بالجمال، فلم يعد الطابع الحيوانى هو المستحب، بل الطابع الإنسانى المهذب النظيف العفيف الشريف.. والنظرة الخائنة تهبط بالإنسان إلى الحيوانية الهابطة، وتدع المجال مفتوحا إلى أن يستشرى الفساد الأخلاقى والانحلال الأخلاقى فى المجتمع الذى يريد الحق له أن يكون نظيفا عفيفا شريفا..

وإن نظرة عجلى على ظاهرة التحلل الأخلاقى الذى يسود كثيرا من المجتمعات الإسلامية تذكرنا بداهة بأن وراء ذلك يهود، حيث زينوا العرى والخلاعة وقدموا

---

(١) النـور: ٣٠ ـ ٣١.

الموديلات الحديثة مما يطول الحديث فيه ويطول!

فهل آن لنا أن نأخذ من إجلاء بنى قينقاع الدرس فى علاج قضايا التحلل المعاصرة، حيث لم يترك أمر بنى قينقاع، إلا بعد إجلائهم عن المدينة؟!

تلك هى أخلاقنا التى يجب أن نتمسك بها، وتلك هى أخلاقهم قديما وحديثا !

## تعجلوا الشر فباءوا به:

ترى، أما كان خيرا لهم أن يؤدوا حقوق الجوار، ويوفوا بالعهود، ويعيشوا فى المدينة آمنين موفورين؟!

لقد تعجلوا الشر فباءوا بـه، حتى تم إجلاؤهـم!

وإن التغلغل فى فهم العواطف والمشاعر الإنســانيـة يفسر كثيرا من المواقف الغامضة !

لقد رأينا المشركين من أهل مكة منطقيين مع شركهم، حين رحبوا بانتصار الفرس، وعدوه رمزاً لغلبة الوثنية فى كل صورها على الدين!

ذلك أن الترابط قائم بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان، مع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط، كما هو الشأن فى عصرنا الحاضر!

ومع هذا فإن المشركين فى مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين فى أى مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم!

وكان المسلمون ـ كما عرفنا ـ يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، وحسبنا ما عرفنا من الموادعة وحسن الجوار مع اليهود!

وتلك حقيقة بارزة يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا، ولا ينتبهون لها، فتراهم ينادون بالصلح تارة! وبإقامة مجمع يضم المسجد والكنيسة والكنيست تارة! وبعقد مؤتمرات الأديان تارة! وبالحرب الكلامية تارة! وبالشعارات المستوردة تارة! وهكذا! مما يندى له الجبين!

## حـقيقة القضيــة:

وما أحوجنا أن ندرك طبيعة المعركة، وحقيقة القضية، فلا تلهينا عنها الأعلام الزائفة

التى تتستر بها أحزاب الشرك والكفر، فإنهم لا يحاربوننا ـ كما أسلفنا ـ إلا على العقيدة، مهما تنوعت العلل والأسباب!

وكلنا يعلم أن اليهود يتجمعون تحت راية العقيدة، بغض النظر عن التحريف والتزييف والتخريف!

وكلنا يعلم ـ كذلك ـ أن الشرق والغرب وحزب الباطل معهم، وإن بدا من بعضهم التظاهر بالوقوف مع العرب، فإنما هو التقسيم للأدوار! ولا أحب أن أسترسل فى هذا الأمر، فلنا معه ـ إن شاء الله ـ حديث خاص فيما بعد ..

ونتساءل: ما معنى أن يغضب اليهود الموحدون ـ كما يزعمون ـ من انتصار الإسلام على الشرك؟!

وبم يفسر حنوهم على القتلى من عبدة الأصنام، وسعيهم الحثيث، لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين القيم؟!

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأنهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة كما أنزلها الله ؛ لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة، وأثرتهم اللازبة!

تلك هى الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التى تربط بين البشر جميعا!

وهكذا عاش اليهود فى عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، ويتربصون الدوائر، ويكنون البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (1)

## عصابات من المرتزقة:

إن طوائف هؤلاء عصابات من المرتزقة، اتخذت الدين عنوانا لمطامع اقتصادية بعيدة

(1) البقرة: ٩١ ـ ٩٢.

المدى، فلما توهمت أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر المخبوء، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين!

ولم يعرف أولئك شرفا فى حرب الإسلام، فلم يكن بد من إجلائهم وتنظيف الأرض منهم!

## وقائع إجلائهم:

وقد كان لإجلاء بنى قينقاع وقعه فى نفوس اليهود، حيث امتنعوا فى أعقاب ذلك عن المجادلة الدينية، وكفوا عن رمى المسلمين بقوارض الكلم، وانفسح المجال أمام النبى لنشر دعوته[١].

## قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود:

ولم يمض على ذلك كبير وقت، حتى سدد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لليهود ضربة مناسبة لجرم طاغوت اليهود، الذى كان قد صعد نشاطه ضد الرسالة والرسول، فيما يرويه الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

**«مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»**

**فقام محمد بن مَسلمة فقال: يا رسول الله! أتحب أن أقتله؟ قال:**

**« نعم »**

**قال: فأذن لى أن أقول شيئا. قال:**

**« قل »**

**فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنّانا، وإنى قد أتيتك أستسلِفك. قال: وأيضا والله! لتملّنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين ـ وحدثنا عمرو غير مرة، فلم يذكر «وسقا أو وسقين» فقلت له: فيه« وسقا أو وسقين»؟ فقال أرى فيه« وسقا أو وسقين» فقال: نعم ، ارْهَنونى.قالوا: أىّ شىء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم. قالوا: كيف**

---

(١) تاريخ اليهود : ١٣١.

نرهنك نساءنا، وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنونى أبناءكم . قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللّأمة. قال سفيان: يعنى السلاح. فواعده أن يأتيه. فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة. وقال غير عمرو: قالت أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم.

قال: إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب. قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين ـ قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمى بعضهم. قال عمرو: وجاء معه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبس بن جبر، والحارث بن أوس، وعباد بن بشر ـ قال عمرو: جاء معه برجلين، فقال: إذا ما جاء فإنى قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استَمْكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرة: ثم أشمكم. فنزل متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب. فقال: ما رأيت كاليوم ريحا ـ أى أطيب ـ وقال غير عمرو: وقال عندى أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو: فقال أتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه، ثم شم أصحابه. ثم قال: أتأذن لى؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه. ثم أتوا النبى ﷺ فأخبروه.[١].

قال ابن حجر[٢] : قال ابن إسحاق وغيره: كان عربيا من بنى نبهان، وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دما فى الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بنى النضير، فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق، فولدت له كعبا، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر، وخرج إلى مكة، فنزل على ابن وداعة السهمى والد المطلب، فهجاه حسان وهجا امرأته عاتكة بنت أسيد بن أبى العيص بن أمية فطردته، فرجع كعب إلى المدينة، وتشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم. قال: وروى أبو داود والترمذى من طريق الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه: أن كعب بن الأشرف

---

(١) البخارى: ٦٤ ـ المغازى ( ٤٠٣٧ )، ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد ١١٩ ( ١٨٠١ )، وأبو داود ( ( ٢٧٥١ ) عون المعبود.
(٢) فتح البارى: ٧:٣٣٧.

كان شاعرا، وكان يهجو رسول الله ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ قدم المدينة، وأهلها أخلاط، فأراد رسول الله ﷺ استصلاحهم، وكان اليهود والمشركون يؤذون المسلمين أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر، فلما أبى كعب أن ينزع عن أذاه أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه. وذكر ابن سعد أن قتله كان فى ربيع الأول من السنة الثالثة.

## بداية الخوف:

وسرعان ما تبددت ردود فعل اليهود إزاء مقتل شاعرهم وطاغوتهم خوفا وفرقا وجبنا. «فليس فى المدينة يهودى إلا وهو يخاف على نفسه»(١).

## عهد وميثاق:

ودفعهم الفزع إلى مقابلة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، فيما يرويه أبو داود بسند رجاله ثقات عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: وكان كعب بن الأشرف يهجو النبى ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبى ﷺ قدم المدينة، وأهلها أخلاط، منهم المسلمون، والمشركون يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبى ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾(٢)

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبى ﷺ، أمر النبى ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطا يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة، وذكر قصة قتله، فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبى ﷺ. فقالوا: طرق صاحبنا فقتل. فذكر لهم النبى ﷺ الذى كان يقول، ودعاهم النبى ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبى ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة (٣).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٢: ٤٨٧ ـ ٤٩١ ، وابن سعد: ٢:١:٢١ ـ٢٣، وجوامع السيرة: ١٥٤ ـ١٥٦، والكامل: ٢:١٤٣ ـ١٤٤، والبداية والنهاية : ٤: ٥ ـ ٩.

(٢) آل عمران : ١٨٦.

(٣) أبو داود (٣٠٠٠) وقال المنذرى: قوله( عن أبيه ) فيه نظر، فإن أباه أبا عبد الله بن كعب ليست له صحبة، ولا هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، ويكون الحديث على هذا مرسلا، ويحتمل أن يكون أراد بأبيه جده وهو كعب بن مالك، وقد سمع عبد الرحمن من جده كعب بن مالك، فيكون الحديث على هذا مسندا، وهو كعب أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. وقد وقع مثل هذا فى الأسانيد فى غير موضع يقول فيه عن أبيه،وهو يريد الجد. انظر: جامع الأصول: ٢:٦٣٦ وعون المعبود:٨:٢٣٠.

والمعنى أن النبى ﷺ قال لليهود والمشركين إن أنتم تنتهون عن السَّب والأذى فلا يتعرض لكم المسلمون ، ولا يقتلوكم، فكتب كتاب العهد والميثاق بين الفريقين .. [(١)].

## النبى لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها:

وإذا كنا قد رأينا ما كان يفعله كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، المنطلق من كل العهود والمواثيق، فإننا رأينا كذلك ـ أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يترك هذا الطاغية يقوم بأعمال خطيرة، تؤجج النيران من كل جانب ضد المسلمين، ولا يتعدى الأمر إلى من ينتمى إليهم من بنى النضير، فأكثرهم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال، ولا تزر وازرة وزر أخرى، والنبى عليه الصلاة والسلام لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها.

ومن ثم كان لا بد من قتل هذا الطاغوت، حتى لا يحذو حذوه بقية يهود!

ولا بد ـ أيضا ـ أن يجتث الداء فى موضعه، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله، ولا منجاة حينئذ، فلم يبق إلا أن يقتل، وأن يدعو الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من يتولى قتله فى مأمنه، وقد اتخذ ـ كما رأينا ـ حصنا يأوى إليه، فحرض عليه الصلاة والسلام من يقتله من غير ضجة، ولا إزعاج لأحد من الآمنين.

يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة(٢): ولقد وجدنا من الغربيين الذين يكتبون فى تاريخ الإسلام من أثاروا زوبعة حول النبى ﷺ، وكيف يأمر بالقتل، وهو نبى مرسل، قالوا ذلك، ونسوا أنه نبى لا يدعو إلى الاستسلام للشر، بل يقاومه، ويحتاج لحماية الناس من الدماء، وأنه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفع الضرر الكثير بالضرر القليل، وأنه فى سبيل أن تحقن الدماء فى القتال يجب منع أسبابها، وأن الذى كان يثير الحرب جذعا هو واحد، وقتل واحد شرير خير من قتل جماعة فى ميدان الحرب، فهو كان يحرض على الحرب!

قالوا: إن القتل كان غيلة، ونحن نقول فى ذلك: إن الرجل جاهر بالعداوة، وشبب بنساء المسلمين، وحرض اليهود على الانقضاض على المسلمين، ونكث العهود، ولم يكتف بذلك، بل ذهب إلى مكة وأثار الأحقاد، ودعا إلى أن يقاتلوا محمدا.

فعل كل ذلك جهارا نهارا، فإذا لم يتوقع من محمد ﷺ أنه يتربص به الدوائر الدائرة، وأنه يريد أن يقضى عليه ؛ لأنه مادة الشر ولسانه، إذا لم يقدر ذلك فهو أبله، ولم يكن كذلك، فمحمد ﷺ أمر بقتله، فى وقت كان هو يتوقع ذلك، أو ينبغى أن يتوقع

---

(١) عون المعبود: ٨: ٢٣٠.

(٢) خاتم النبيين : ٢: ٨٢١ وما بعدها بتصرف.

ذلك، ولا يعد القتل غيلة لمن يتوقع القتل، وإن أمر النبى ﷺ بالقتل يشبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب آثاما كثيرة، وأن من أحضره حيا أو ميتا، فله جزاء.

إننا فرضنا أن الحكمة والعدالة والأخلاق توجب التخلص منه، وإذا لم يجز التخلص منه بالطريقة التى حدثت، فكيف كان يمكن التخلص؟

أيحضره من ينتمى إليهم فيقدموه للنبى ﷺ؟!

إنهم لا يفعلون ذلك، ولم يوجد من يتحمل تبعة عمله وما يفعل، وإذا لم يكن ذلك، أيأمر النبى ﷺ بإحضاره بين يديه والحكم عليه بالقتل، ويتولى قتله؟

وما الفرق بين هذا، وبين ماكان من حيث المعنى؟

إن قتله كان أمرا لا بد منه، لما قام به، ويقوم به رئيس الدولة العادلة التى يحكمها ذلك الحاكم العادل، فإنه لا سبيل لدفع فساده وإفساده إلا بقتله، بأى طريق كان القتل، وكل ما فعله النبى ﷺ أنه أباح دمه، جزاء ما ارتكب، ومنعا لاستمراره فى غيه، فقد كان يقوم بجريمة مستمرة غير متحرج.

قلت: ومن ثم كان هذا الموقف بداية لإظهار خوف بقايا اليهود، حيث لم يعد يهودى فى المدينة ـ كما عرفنا ـ إلا وهو يخاف على نفسه، وكان ذلك سبيلا إلى عهد وميثاق، يمنع اليهود وأشياعهم من السب والأذى، حتى لا يتعرض لهم المسلمون بما يكرهون! ولكنها ـ كما سيأتى ـ طبيعة يهود!

## الوحدة السياسية فى المدينة:

وإجلاء بنى قينقاع تصرف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر[1].. وهو مقدمة لم يكن منها بد للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة الدعوة الإسلامية.. فليس شيء أضر على وحدة الوطن من تنازع الطوائف فيه.. وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بد منته إلى تغلب طائفة على سائرها غلبة تنتهى إلى سيادتها.. وقد تحدث بعض المؤرخين منتقدا تصرف إجلاء اليهود، زاعما أن حكاية المرأة المسلمة التى ذهبت إلى الصائغ ـ كما سبق ـ كان من اليسير إنهاؤها، ما دام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل.. وقد نستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودى والمسلم لم يمح ما لحق بالمسلمين من إهانة فى شخص المرأة التى وقعت فى عبث هذا اليهودى، وأن مثل هذه

---

(١) حياة محمد: ٢٨١ بتصرف.

المسألة عند العرب، أكثر منها عند غيرهم من الأمم، جديرة أن تثور لها الثائرات، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة..

وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ.. ولكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتبارا آخر أقوى منه.. فحادث المرأة كان من حصار بنى قينقاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولىّ عهد النمسا بسيراجيفو سنة ١٩١٤م من الحرب الكبرى التى شاركت فيها أوربا جميعا.. هو إنما كان الشرارة التى ألهبت ما تأجج به نفوس المسلمين وغيرهم لهبا أدى إلى انفجارها، وإلى كل ما يحدث الانفجار من آثار..

والحق أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة، قد جعل المدينة من الناحية السياسية على بركان لا مفر منه من أن ينفجر، وقد كان حصار بنى قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة أول مظاهر هذا الانفجار.. ولا ننسى الجانب الأخلاقى ـ كما سبق ـ فهو الأهم..

ومن ثم كان طبيعيا ـ كما عرفنا ـ أن ينكمش اليهود وغيرهم بعد إجلاء بنى قينقاع عن المدينة، وأن تبدو من الهدوء والسكينة فى المظهر الذى يعقب كل عاصفة وكل إعصار.. وكان ذلك إلى حين..

ولا ننسى ما سبق من ذكر دعوة الإسلام إلى إقامة مجتمع نظيف عفيف شريف، وكيف أن الدين القيم رفع ذوق المجتمع، وطهر إحساسه، ومن ثم لم يعد الطابع الحيوانى هو المقبول، بل الطابع الأخلاقى الإسلامى المهذب النظيف العفيف الشريف.

# أهـــم المـراجـــع


١ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى، دار المعارف، بيروت، ط ثانية ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م.

٢ـ البداية والنهاية، لابن كثير، المعارف، بيروت، ط ثانية ١٩٧٧م .

٣ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتورمحمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٤ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبرى، دار المعارف.

٥ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب، للدكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

٦ـ تفسير ابن كثير ( تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، البابى الحلبى.

٧ـ تفسير الطبرى( جامع البيان عن تأويل القرآن ) للطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٨ ـ تفسير الطبرى ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

٩ـ تفسير القرطبى ( الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت١٩٦٧م.

١٠ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، ط الاستقامة ١٣٦٥هـ .

١١ـ تفسير المنار ( تفسير القرآن الحكيم ) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.

١٢ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الملاح، ط أولى١٣٨٩هـ ـ١٩٦٩م .

١٣ـ جوامع السيرة النبوية ، لابن حزم ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م وط ثانية تراث الإسلام.

١٤ـ حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، دار إحياء التراث العربى، ط ١٣ النهضة المصرية ١٩٦٨م.

١٥ ـ خاتم النبيين، للشيخ محمد أبو زهرة، المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية، الدوحة ١٤٠٠هـ.

١٦ ـ دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية، للدكتور محمد عبد الله دراز، ط دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٧ ـ دراسة فى السيرة، للدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة، دار النفائس ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٨ ـ الروض الأنف، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٩ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة: المنار الإسلامية ط أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٠ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى.

٢١ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٢ ـ سنن الترمذى ( الجامع الصحيح ) للترمذى ، ط بولاق ١٢٩٢هـ و ط الهند وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى، بيروت .

٢٤ ـ السيرة النبوية، لابن هشام ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٥ ـ السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، دار المعارف، بيروت.

٢٦ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٧ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٨ ـ صحيح مسلم، بشرح النووى، ط المصرية.

٢٩ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٠ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن القيم، تحقيق الشيخ عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م.

٣١ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.

٣٢ـ فتح البارى: شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض.

٣٣ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م.

٣٤ـ الكامل فى التاريخ، لابن الأثير، ط المنيرية ١٣٤٨هـ .

٣٥ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحرير العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.

٣٦ـ مختصر سيرة الرسول ﷺ، للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٣٧ـ المسئولية الاجتماعية فى الإسلام، للدكتور سعد المرصفى، مكتبة المعلا، الكويت ط أولى ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

٣٨ـ مسند أحمد، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٩ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى، مع شرح الزرقانى، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

٤٠ـ النبأ العظيم: نظرات جديدة فى القرآن، للدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ثانية ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م.

٤١ـ اليهود فى القرآن، للأستاذ عبد الكريم الخطيب، دار الشروق، ط ثانية ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م ــ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

# الفهـــــــرس

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |


مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : DWFA UN ٢٤٠٠٤